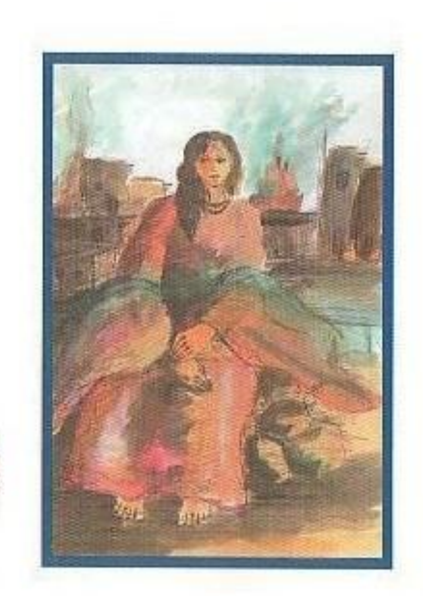
عبد الباقي يوســـف

بَروين

روايــــــة

عبد الباقي يوسف

پروين



رواية

الموقف يموج بحشد أجساد منهكة ، لا موقف نظاميا هنا ، لا شارات مرورية ولا مظلة تقي أشعة الشمس .. كلهم ينتظرون تحت سياط شمس آب اللهابة المسلطة على جباههم وحبيبات العرق تنزل من رؤوس آنافهم ، من ذقونهم ، من مؤخراتهم . وما أن يتراءئ \ سربيس \ حتى يتبعثر الحشد كالأشلاء ويمتلئ الشارع بالأجساد والأصوات والصافرات والحشرجات . يتقاذعون .. يتباصقون .. يكفرون ... يمسحون العرق بأطراف أصابعهم ويتراشقون .
يمتلئ السربيس ويمضي ، ويكبر حجم الحشد .
كل الأنظار عالقة في مدخل الشارع .
تتراءى حافلة كبرى ، تظهر لأول مرة ، تدنو بتمهل ،، بوسعها أن تحمل كل هؤلاء ،، يهرع إليها الحشد على شكل تظاهرة ..
تسرع الحافلة بعد تمهلها ، يتباطأ الحشد بعد خطوات من تجاوز الموقف . تتمهل الحافلة.. يهرول الحشد مرة أخرى إليها وبغتة تسرع مخلفة دخانا قاتما على العيون والحناجر .

تدمع عيونهم ، يكحون ، ثم يعودون إلى التحشد بانتظار شبح سربيس آخر .

وحدها بروين تنزوي في ركن خال وتراقب المشهد بصمت وكلما نظرتُ إليها اصطدمت نظراتنا كالصاعقة .

حافلة مهترئة تتوقف بغتة بمحاذاة الحشد ، ثلاث ممرضات يتقدمن إلى الباب كتلة واحدة ، يدفعن ،، يحاولن الصعود، يعرقن ثم يتراجعن خائبات .

ترمقني إحداهن وأشعر بقيء .. تماما في هذا المطرح تعارفنا ، هذا الموقف الذي بمقدوره أن يجمع كل سكان الحي .

كنت داخل الحافلة وكانت على الرصيف المحاذي لنافذتي ، نقرت بللور النافذة بأظافرها وناولتني حقيبة نسائية صغيرة لأحجز بها مقعدا ، وضعت الحقيبة على مقعد شاغر وعادت الفتاة إلى الوقوف مطمئنة لحجز الكرسي ،لكن الحافلة مشت بغتة تاركة الركاب الذين يحاولون الصعود على الرصيف .

مددت يدي إلى الحقيبة ووضعتها على ركبتي .

لدى استئناف الحافلة سيرها باتجاه الحي تلمست الحقيبة مرة أخرى في محاولة لمعرفة تنبؤية للتعرف على محتوياتها ، وشردت بأمور خطرت لي لأول وهلة .

- كازية كازية

أيقظني الجابي بصوته فنهضت : على مهلك

- كازية على مهلك

قالها للسائق .

نزلت بعد مجهود والحقيبة تحت إبطي . دخلت الغرفة ، بركت على السرير : سأفتحها . انتشر الصوت في الغرفة

- لا ، هتف الصدى

مددت إصبعي إلى آلة التسجيل : لِم لا أفتحها .
صعدتْ عبارتي إلى السقف ، ولم يردني جواب .
أمسكت بالسحاب وسحبته برفق ، انفتحت الحقيبة وتراءى ما في جوفها .
أخرجت المحتويات : وريقات نقدية وسخة ، علبة دخان أجنبية تستتقر فيها سيجارتان ، واحدة مكسورة ، مرآة صغيرة وعلبة مكياج وبطاقة ممرضة باسم / كليستان / .
أعدت تلك الأغراض إلى الحقيبة وأغلقتها مثلما كانت
- لنصعد يا كليستان .. تأخرنا
قالتها إحدى الفتيات لصاحبتها التي تنظر إلي باكتراث .

- لا أماكن
- عالواقف
- (عجقة) حتى (عالواقف) لم يعد ممكنا .

عالوا قف ، تلك الكلمة مئات المرات تلفظ كل يوم في الموقف .. وهي تعني لي عكس ما تعنيه للجميع ، عالواقف .. كم من الذكريات .. الاخفاقات . . الأحلام تعني لي .
دنت إحداهن إلى النافذة الخلفية للحافلة .
أخرجت منديلا من حقيبتها ، مدت رأسها إلى النافذة وقذفت الحقيبة لتستقر على مقعد مفرد وتراجعت قائلة : أفضل طريقة نستخدمها مع مثل هؤلاء الذين لا يحترمون النساء .
الصعود .. والصعود بأي طريقة . الأجساد منهكة ، البطون تقرقر جوعا ، الشمس تكوي الرؤوس وعقارب الساعة تدنو من الثانية .

- سنتعاقد مع باص نحن الممرضات ، هذا الحل يناسبنا حتى نأتي ونعود في المواعيد المحددة .

لفظتها كليستان

هتفت إحداهن : والكوافيرات ، الخياطات ، المصورات . تشابكت الأصوات ، تعالت ، تهافتت .
رجل عجوز رمق حشد الممرضات وهو أضخم حشد وقال بعد أن عطس : لما تبلغ البنت سن المراهقة تفكر بالتمريض قبل بيت الطاعة ، انظروا .. كبراهن مراهقة .
- (مصاري) يا أخي .
قذفتها عجوز حنواء ببؤس وتدخل رجل كوسبح الوجه حليق الدفن يرتدي بدلة رسمية مع ربطة عنق وعلى عينيه نظارة طبية وبيده مظلة تقي رأسه أشعة شمس آب اللهاب
- من حيث عمل المرأة في مجتمع متخلف ظاهرة صحية .
وبدأ يتمتع بقدر من الذكاء وثقافة أدب النقاش فقد أوحى للجميع بأنه يتمتع بمكانة اجتماعية عالية من خلال لفظ تلك العبارة القصيرة والموجزة \ نفخ على ظاهر كفه \ ولكن – قال – : لذلك سلبيات . .
قاطعه الرجل المسن : هات يا أستاذ يا صاحب العلم ؟!
نظر الأستاذ إليه وقبل أن يجيب هتف أحد الشبان : دعه يتابع يا عم همهم الرجل المسن - هو يتجه إلى الأستاذ بكلامه وينظر في وجه الشاب - : يا أخي أنا معك لو اشتغلت الحرمة ، لكن بهذه الفظاعة لا يمكن لعاقل أن يقبل ، لقد احتلت مكان الرجل .. يعني بصريح العبارة - نظر حوله كمن يود أن يختلس شيئا - الرجال صاروا في الشوارع بعد هذه الموجة : الدكتور يريد صبية ، المحامي يريد صبية ، المدير يريد صبية ، الخياط يريد صبية ، المصور يريد صبية وشبابنا عاطلون يسهرون حتى الفجر وينامون للظهر .
أتصدق لدي ثلاثة عاطلون عن العمل ، وجاري لديه ثلاث صبيات يخرجن في الصباح ولا يرجعن قبل الغروب .

رفع الأستاذ سبابته إلى النظارة مبتسما : نحن نتحدث عن أمور أكثر أهمية يا عم .
جاء صوت أراد الانضمام إلى الحديث : لا شيء أخطر من المال يا سيد .
أجاب صوت آخر : الله أهم و أخطر من المال
كان صاحب الصوت رجل دين في نحو الخمسين من عمره فأجابه الرجل وقد دنا إليه : هل يأتون إلى العيادات من أجل الله أم من أجل المال ؟
قال رجل الدين : الله يأمرهم بالعمل .
قال الرجل : ولكن من أجل المال .
قال رجل الدين : المال وسيلة .
أجاب الرجل : بل هو غاية وغايتك أنت أولا
قال رجل الدين : نحن بعنا الدنيا لكم واشترينا الآخرة
أجاب الرجل : أجل اشتريت ، أنا أوافقك
وقاطعهما الأستاذ : نحن يا سيدي الشيخ نتحدث ونتسلى إلى أن يرحمنا الله ويأتي سربيس ، لا تؤاخذنا .
وحادثة رجل الدين بصوت شبه مسموع : لكن هذا الرجل يبدو مرتدا .
قال الرجل : أنا واثق من عودتك إلى هذه النغمة عند إفلاسك واطمئن أنا لست مرتدا لكن برغم هذا فإن الله الذي أؤمن به هو غير إلهك الذي تؤمن به .
قال رجل الدين : مرتد ومشرك أيضا أعوذ بالله منك ومن أمثالك .
قال الرجل : أنا لن أسبك احتراما لسنك ، انظر يا سيد : إلهك هو الذي يمنحك جواز سفر إلى الجنة ومجرد حصولك على هذا الجواز يمنحك كل ما تريد وتشتهي مجانا ، هذا هو المال الذي لا ينفذ وأنت من أجله تبيع الدنيا - هذا إن كنت تبيعها - ، ولكنك تشتري ما يبطل مفعول المال ،

وهذا أعظم من المال لأنه الجواز الذي يهب كل شيء ولو لم يكن في الجنة ما تشتهي لتركتها إلى حيث ما تشتهي ، حتى الخمرة متوافرة هناك كي لا تبقى لك حجة .
حك رجل الدين مؤخرته وانصرف قائلا : هذه زندقة . عندئذ صاح به الرجل : ولكن لا تنس أن الهي هو غير إلهك .
قال الأستاذ : صحيح النساء يعملن ، ولكن هذا يكون على حساب تعليمهن ، أنا لا أرى محافظة واحدة أو رئيسة بلدية . ومن الجانب التربوي فإن هذا العمر لا يؤهلهن للاختلاط بفئات مجتمعاتنا المكبوتة ..
قالت فتاة أسيلة البنية حدباء : لـ لـ للـ لـ لـ ::::: لـ لـ لـ لـ لـ لـ لـ لنفتـــــرررررض ،،،،، لنفتـــــرض أأأ ،، ءءءءء أأأنــــــا أشـــــتغل مممممرررضة ف ف في عيادة .... ولكن لستُ سـ .. سـ سيئة . حطت كفها على شفتيها ومنعت خروج البقية .
التعميم لغة السفهاء .. لا أقصد العالم كله .. مع هذا قد تكونين أقل نضجا .
هل النضج يكون بعدد السنين التي نعيشها ...
قذفتها فتاة أخرى بلهجة استفزازية في وجهه ، ولمّا لم يجب واصلت بحدة : التاريخ يذكر أسماء عبقرية لم تكن ناضجة إذا مارسنا عليها نظريتك في مسألة السنوات .
لبث صامتا فتأبطت الفتاة زند صديقتها وجرجرتها صوب حشد الفتيات ، لكنه صاح ملوحا بيده : يا آنسة لدي ما أقوله .
التفتت إليه : أنا اختصرت ما تريد قوله .
ثم واصلت نحو الفتيات وهي تتمتم لصديقتها : لأن أي رجل وهو يتحدث مع امرأة يريد أن يعلم أن كان بإمكانه أن يضاجعها .
هرول نحوهما بعصبية وقال بقسوة : لكنني موجه تربوي .

- تشرفنا .

قالتها وقد عادت إليه مبينة بأنها لم تقصد الهرب ، استطرد في القول وقد أعاد مكانه ومكانته : فقط أود أن أشير إلى تخصصي في الموضوع الذي أناقشه .

- أي تخصص يا سيدي .. دع الطابق مستورا .

علا هذا الصوت وزحف صاحبه إلى الجمع الملتم حول الموجه التربوي . كان نحيلا .. يرتدي ثيابا قديمة لكنها مكوية يوحي منظره بأنه مصاب بداء السل أو الإيدز ، كان يرتعد بقوة ووجهه يزداد شحوبا وصفرة .

قال : أنت تعرف ، وغيرك يعرف ، لكن لا أحد يود أن يعرف الآخر بأنه يعرف أنه كان يعرف .

لم أفهم ما تعنيه يا سيد أوضح .

أجاب الشاب النحيل : إن كنت تعرف بأنك من سلالة الحمير .. هل ستعلم الآخرين بأن الظاهر أنك روح حمار في جسد بشري وما أنت سوى روح حمار نفخت في جسد إنسان ، أنت تحافظ على القناع ولا تدع أحدا يستطلع الباطن ، والأخطر من ذلك لن تدع أحدا يعرف بأنك تنتمي إلى سلالة الحمير .

الآن أيها السيد الموجه التربوي لو اكتشفت بأنك كنت قبل ألفَي عام بغلا وعدت إلى الحياة بهذه الهيئة ، أعتقد بأن الحلول المؤقتة تزيد الماء تلوثا .

كان يتحدث وبين برهة وأخرى يلقي بنظراته إلى الفتاة .

- أنت رجل متهور .. وأنا لست مستعدا أن أجيب عليك بمثل تهورك ، لماذا تصر أن تسمعني ألفاظك البذيئة ما دمت لا تستطيع أن تقول غيرها .

قهقه الرجل بصوت يشبه صوت الخنزير ودنا إلى الفتاة وهو ينظر إليها ظانا بأنها ستنضم إليه ، لكن يبدو أن الفتاة استوعبت حالته المضطربة

فانسحبت دون أن تبادله نظرة واحدة وربما حتى يثبت الرجل بأنه لم يقصد ما فهمته الفتاة المنسحبة أردف في القول بلهجة هجومية هذه المرة : أنت تعرف أن الطفل عندنا لا ينام إلا مع سماع قصص وأساطير مفزعة ، وفي أحسن الأحوال يغفو تحت التهديد : " نم قبل أن يفترس الكلب لحمك " . وعندما يرغم نفسه على النوم يتبول في القماط وتوخزة الكوابيس المفزعة حينما يرى ذاك الكلب قد دخل حلمه ويريد أن يفترسه في الحلم فينتفض ويعيش حالة هذيانية بين أن يستسلم لكلب اليقظة أم لكلب النوم ، ولكن لماذا نصر أ ن ينمو هذا الطفل ويكون ناضجا ونعلق عليه آمال الأسرة والوطن والأمة .. حتى لو جلس على أي كرسي فإنه سيلبث يعاني من هذه الثنائية الساذجة وسينتفض مهووسا ساعة الشفق كما كان ينتفض سنوات الطفولة ، لكن الطامة ينتفض الآن وهو يرى مصير مدينة أو شريحة أو مؤسسة أو بلد أو أمة بين ثنايا هذا الهوس .. سيتذكر وهو في هيجان هوسه أنه كبر على البصاق والتقويم وشد الأذنين ولم يحتفل أحد ليوم واحد بأعياد ميلاده ، ولكن أيضا سيعرف كيف سيرغم على الآخرين بأي طريقة يحتفلوا بأعياده .. أنا أستطيع أن أعقد عليك آمالا كبيرة عندما تكون موجها تربويا حقيقيا وأستطيع أن أنظر إلى وظيفتك بقدسية وأحني رأسي كلما صادفتك .. لكنك موجه تربوي غير موثوق به لأنك ما تزال تعاني آثار التربية السيئة وليس بوسعك أن تعطي شيئا تفتقده أنت ، هؤلاء الذين تراهم فقط أشباح تتحرك .. تأكل مصادفة وتشرب مصادفة ، وتبول مصادفة .. إنهم همج أي ملامح للإبداع في وجوه هؤلاء ، انظر ، الجهل يصرخ في وجوههم ، انظر إلىالشارع ، الجهل في عيونهم .. الجهل في أجسادهم .. الجهل في كلامهم . الجهل في وقوفهم .. الجهل في حركاتهم .. انظر .. هؤلاء بعد ستة أعوام سيصبحون آباء .. يالهول الكارثة .

ومشى دون أن يكمل ودون أن ينتظر أي تعقيب على أقواله .
حك الموجه التربوي مؤخرته وقال : هذا مخرب .. انه مثل الذبابة التي تنقل الأمراض السارية ، إنه مصاب بداء الفصام ، أما نظرتم إلى جسده ، ألم يصدق القديس بولس حينما قال : " لو كنتم عميا لما كانت لكم خطيئة " .
عندما نرى هؤلاء نسخط ونلجأ إلى الشتائم .
تقدمت كليستان وقالت : لا أحد يبرر سبك للرجل .. لا تشتمه على الأقل احتراما لغيابه .. كان عاقلا عندما تحدث وكان عاقلا عندما انصرف .
لقد قال رأيه ، كيف تود أن تحجز آراء الآخرين في الوقت الذي ترغم علينا سماع رأيك ؟!! .
وقالت الفتاة التي تتحدث بانقطاع بسبب عذر في لسانها الحديث الـ الـ الـ اللللـــ ذي قـقــقـقاله الرجل يبيّن أن أطفال منننطقتتتتتتنا مرررررروا ووو ا بتجاررررب قاسية .
وصمتت مرة أخرى وقد رفعت كفها إلى فمها بخجل .
قال الموجه التربوي بصوت جهوري ناسيا بأنه في شارع عام : إن..
- ماذا حدث يا أستاذ ؟ ... أن ... أن .. إلى متى ستئن ؟
- دعيه يزأر يا كليستان
- أكمل يا أستاذ .
ودوت القهقهات المجلجلة في الشارع ، بحلق الموجه التربوي حوله بإمعان فرأى نفسه الرجل الوحيد الذي يتوسط حشدا من المراهقات ، وأدرك للتو بأنهن يتضاحكن عليه منذ نحو نصف ساعة .
أفسح مكانا لقدميه وتملص كجرو ،،، والعبارات تلاحق أسماعه إلى نهاية الشارع .
- أستاذ .. أستاذ ، وقع منك .

- بنطلونك مقطوع من القفا .
- دبور على رأسك .

وبروين .. بروين ما تزال تنتصب شامخة تحت أشعة الشمس . أتأمل وجهها الاحتفالي .. عينيها السوداوين البراقتين .. شعرها المسرح بدقة فائقة .. ثغرها الصغير .
بنطالها الأسود القاتم كليل شتائي يتلبس النصف الأسفل من الجسد المتناسق ويشمر عن الساقين عليه قميص أبيض يستريح كشال فارسي على كتفين مستقيمين ، ويلف الخصر حزام خمري يحيل أشعة الشمس إلى أشكال وألوان قوس قزحية ، والمنديل ذاك البنفسجي المبلل يتشرب إفرازات الجسد الأنثوي المتمرد بنهم .. يتشرب من مساحة الجبهة والخدين والعنق والعينين .. يتشرب كحصان ظمآن لن يرتوي بمياه العالم .
وتقف بروين على رصيف القلب تفتح بابه لأول مرة . أرتجف من سحرها الهائل : أي جمال أيها الرب هذا الذي صنعته .
العالم كله يبدأ من هاتين العينين .. أي شعور هذا الذي تفرزه هذه الطفلة الملائكية في أعماقي .
كل أحزان العالم تنتهي على هذا الرصيف .. كيف بمقدوري أن أصبح الرصيف لتقف بروين كلها ، تقف إلى ما لانهاية .. وقلبي ، قلبي ذاك المطعون لم يعد يحتمل كل هذا السحر .. كل هذا الجمال كل هذه الجاذبية ، يكفي يا بروين بحق شهور الصوم ، لا تنظري إلي نظرة أخرى .. أي نوع من النساء أنت ، أي نطفة مباركة غرست جذور هاتين العينين .

كل الأبجديات تضرب عن الأبجديات في حضرة التسريحة . وأهرع .. أهرع .. أهرع .. وتلاحقني بروين بنظراتها .. تلاحقني إلى تحت السرير .

لقد تغير العالم بغتة ، هكذا بمقدور امرأة أن تزلزل الكون ، أن تغير كل المفاهيم والمعتقدات .. بمقدور نظرة واحدة أن تلغي تاريخا وتنسف تفاصيل عمر مضى .. بروين هي التاريخ .. هي المستقبل .. هي الكرة الأرضية .. كل شيء يهتف باسمها في سرية تامة .

الإخفاق الثاني

العاشرة صباحا أيقظني صوت الباب .
مطّطت جسدي ، تكورت تحت البطانية .
فتحت هالة الباب بنسخة المفتاح الموجودة لديها ودخل جسدها : أما زلت نائما ؟ .
وأين سأذهب ؟
جلستْ مولية ظهرها للحائط : من يوم سفر شيركو وأنت تذوب .. أرسل له رسالة كي يعود أرجوك ، ستموت على هذه الحال .
شيركو يا هالة كان يعني لي كل شيء .. كان البديل عن كل ما أصابني .

لماذا تركته يسافر ؟
سيعود ، لا بد له من العودة على الأقل من أجل أن يراني .. سيعود يا هالة .
أشرت إليها أن تشعل المذياع ، وبمد أصابعها إليه امتلأت الغرفة بصوت طبيب يتحدث عن أمراض القلب والمذيعة تذكر برقم هاتف الإذاعة للاتصال به وتوجيه الأسئلة .
ترامى صوت أحد السائلين : دكتور قلبي يحك ولا أستطيع أن أحكه .
ترامى آخر : دكتور أشعر بلغم في قلبي .
هتف آخر : دكتور ألا يتألم قلبك ؟
مرة واحدة أردت أن أعرف ما إذا كان بمقدور الإنسان أن يعيش بنصف قلب وإن استطاع هل سيموت ؟
أنا لا أفكر بدواء يزيل أمراض القلب ، أفكر بطريقة تعفي مهمة القلب وبزوال القلب تزول كل أمراضه .
مددت يدي إلى علبة الدخان ، قذفت سيجارة إلى هالة ، وأشعلت سيجارتي .. ربما حضور هالة جعلها تحمل نكهة خاصة ..
أشعلتْ الغاز وبدأت تسخن الماء .
مدتْ جريدة على الأرض ووضعت عليها علبة الزبدة التركية وكيس الخبز وبعض الزيتون والجبن .
سكبت الماء في الإبريق ، وتركتُ السرير .
ناولتني معجون الأسنان وعلبة الشامبو وغدت تسكب الماء الساخن على رأسي .
وحدها هالة ما زالت تصر على الوقوف بجانبي رغم تخلي الجميع عني ، حتى شيركو تركني في هذا الجحيم ... إيه يا شيركو أين أنت الآن ؟
وحدها هذه المسكينة تعرض نفسها للمصائب والكوارث من أجل أن تواصل اهتمامها بي ، جاءت إلينا وكنا بأمس الحاجة إلى امرأة توجه طفولتنا .. كنا

أنا وشيركو نعمل في بيع الخضار وقد اعتدنا أن نمارس شكلا من التغيير كل عام وفي الأيام الأربعة المتبقية من رأس السنة نبيع على " عربة " جوزا ولوزا وألوانا أخرى من الموالح التي تأتينا من رجل تركي مهرب فنربح جيدا ومن ينظر إلى عربتنا لا بد وأن يفكر بشراء شيء لاهتمامنا بمظهرها وإضفاء لمسات جمالية على محتوياتها . وحرص شيركو على هذا الشكل يجعله يصر على عدم عودتنا إلى البيت خلال أربعة أيام متواصلة فننام بجانب العربة رغم البرد وكان سعيدا بالبرد .

ويقول : اذهب أنت نم في الغرفة وعد صباحا .

وأقول سنذهب معا ونضع العربة في مكان أمين .

ويقول بصوت مرتفع يعلوه الزحمة : أنا لن أذهب ...

انظر إلى الناس كلهم ينامون هنا .. هذه الأيام الأربعة تعادل عمل أربعة أشهر ونحن بحاجة إلى المال ... كثيرة هي الأغراض التي تلزمنا .. نحن بحاجة إلى كل شيء . لن أذهب من هنا .. لا تنظر إلي باستياء ولن أمشط شعري ، لن أغسل وجهي ، لن أخلع ثيابي وحذائي إلى آخر أمسية .. اذهب أنت في الحادية عشرة ليلا عندما يتوقف العمل وعد في السادسة صباحا .

وهل تتصور أنني أستطيع النوم بدونك .. حتى شبحك سيعاتبني ومكانك سيرعبني ...

- إذا كن معي .

وقفت امرأة بجانب العربة وطلبت كيسا . ناولتها الكيس وكانت تنظر إلي فنظرت إليها وابتسمت فابتسمت هي الأخرى . ملأت الكيس جوزا وناولتني وضعته في كفة الميزان .

قالت : ألم تكونا في السوق الخاص بالخضار ؟

قلت : أجل .

قالت : لقد اشتريت منكما مرتين .

قلت : الكثيرات يشترين منا لأننا لا نطمع ولا نبيع إلا البضاعة الطازجة .
قالت : زوجي أيضا يعمل عتالا في سوق الخضار وأراكما كثيرا حتى مرة رأيتكما في حارتنا هل أنتما أخوان ؟ .
نسكن في غرفة واحدة في الحارة المقابلة لحارتك .
-استأجرتما غرفة هناك ؟
- أجل .
- وأهلكما ..؟ كيف تعيشان ومن يهتم بكما ؟.
- لا أحد .. نرتب أمورنا فإذا رأيت الغرفة ستعتقدين بأن امرأة تسكن معنا .. شيركو ..يتولى مهمة المرأة وهو أمهر من أي امرأة .. انظري إليه حتى وهو جميل مثل أي امرأة جميلة .
- لقد شوقتني لرؤية الغرفة .
- نرحب بك متى تأتين .
- متى ؟
- بعد رأس السنة لأننا لن نرى وجه الغرفة إلا في الليلة الأخيرة عندها سنذهب إليها ... نستحم ونسهر حتى الصباح ثم ننام ثلاثة أيام متواصلة .

دون أن نفتح الباب لأحد وفي اليوم الرابع نعود إلى سوق الخضار نهضت باكرا ألقيت نظرة إلى ساعة الحائط .
ما زال الوقت مبكرا لأدع شيركو ينام ساعة أخرى ويتمتع بها في هذا البرد القارس . وقفت أمام النافذة أتأمل الثلج الأبيض الذي يكسو الشارع والأسطحة والجدران . يا له من منظر بهي .. كالقطن يتساقط الثلج من مزرعة السماء .
ليوم الثلج طقوسه الخاصة وأقحمت الذكريات مخيلتي .. ذكريات الطفولة والثلج والقرية ... :

... أمي .. أمي .. اعطني صحنا ودبسا
أملأ الصحن وأعود مسرعا إلى المدفأة .. أصب عليه الدبس فيصبح بلون الشاي .. وعند الظهيرة تصنع أمي الثلج بالحليب .. أنها من ألذ أنواع المثلجات التي ما تزال طعمها تحت لساني . ونجتمع أطفال القرية نصنع كرة كبيرة في قمة التل ثم نتركها تتدحرج إلى الأسفل وتطارد الماعز .
وضعت البشكير على رأسي وخرجت ألملم الثلج في صحن وعدت في أقصى سرعة أرتجف بردا .. أشعلت المدفأة .. وجلست أمي تنفخ بحرارة على أصابعي .. الثلج يذوب في الصحن ويوقظ ذكريات الطفولة .
أيقظ ذاك الطفل الذي كنت . تلك النكهة التي لا يمكن لها أن تضيع ... رششت عليه السكر وحركته .. تناولت ملعقة صغيرة وعادت الأمواج إلى شاطئ الذاكرة بقوة وشراسة وعاد الطفل الذي كنت . يأكل الثلج بفوضوية محببة دقت ساعة الحائط . السابعة . فنهضت بسرعة هاربا من الحلم .. ارتديت ملابسي واتجهت مسرعا إلى باب الفرن .. ابتعت الخبز الساخن وبطريق عودتي عرجت إلى الدكان وأخذت إبريق اللبن الذي اعتاد أن يبيت في الدكان كل يوم . عدت إلى الغرفة مبللا بالثلج نوعت الثياب الخارجية أحضرت الفطور وسخنت إبريقا من الماء ليغتسل به شيركو وداعبت شعره .
- صباح الخير يا وردة البيت .
وفتح عينيه قائلا : أين صوت فيروز ؟ .
قلت : آسف ...
واستنطقت المسجلة . إنه وردة الغرفة التي تملأ الأجواء كل صباح برحيقها .. ألا تنهض . ونهضت الوردة من فراشها ملأت الغرفة رحيقا .
-هل سقط الثلج ؟
- أجل

وقدمت أليه صحن الثلج .
شكرا ، قالها وبدأ يلتهم الثلج بجانب المدفأة .
سكبت قليلا من الشامبو على الشعر فبدأت الرغوة البيضاء تشبه الثلج

- شيركو سأبقى اليوم في البيت .
- هل أبقى معك ؟
- لا .. اليوم ستجيء هالة لتغسل الثياب وسأساعدها .
- أخاف عليك من هالة .. يا أخي أرجوك كن حذرا .. أنها متزوجة حاول أن تعفيها من زيارتنا المشاكل التي ستبدأ لن تنتهي . ليسترنا الله .
- لا تخف أنا بحذر .
- سأبقى معك على الأقل لو جاء زوجها سأساعدك عليه .. ربما يراقبها ألا تضع هذا الاحتمال ؟ .
- اذهب وكن مطمئنا .
- مازوت .. مازوت .. مازوت ...

دوى الصوت في الحي كله فقال شيركو ...
املأ التنكة مازوتا .. ولا تنسى جرة الغاز .

- أجل .. أجل .. خذ معك إبريق اللبن للدكان .

انتظر .. اجلب معك نصف كيلو لحمة .. حتى لا تنسى سأكتب لك كل شيء .

- نصف كيلو لحمة .
- كيلو بندورة .
- كيلو تفاح .
- كيلو جزر .
- كيلو برتقال .

- نصف كيلو بصل .
- كيلو موز .
- نصف كيلو موالح طازجة .
- قنبنة عرق .
- جرائد اليوم .
- علبة دخان .

وتعال باكرا اليوم خميس سنسهر الليلة مع برامج التلفزيون . بذهاب شيركو صنعت فنجانا من القهوة بدون سكر ودخلت هالة :

قالت : لماذا لم تذهب إلى العمل .. ؟ أين شيركو ؟ ..

قلت : خرج .

- لم أتوقع أن أراك .. أين الثياب .. لم لم تجمعها في الطشت ؟ .
- سأساعدك .
- عملك أهم من وجودك هنا .. كيف تدع شيركو يذهب بمفرده ألا تخاف يعتدي عليه أحد .. أرجوك اذهب .. أستطيع أن أغسل وحدي .. بكما قليلة .. اذهب إلى شيركو أرجوك .. أنا قلقة عليه .. سيضربه العتالون أنه صغير .. أرجوك ..
- سأذهب لأملأ تنكة المازوت وسأضع جرة الغاز الفارغة في الدكان تأخرت نحو ساعتين في الخارج إلى أن تمكنت من جلب المازوت والغاز . كانت هالة تنشر الغسيل في الغرفة .

ساعدتها إلى أن أنهت الثياب وجلست وجلست أتصفح مجلة قديمة

- لقد تأخرت يا هالة .. ألن يرجع بشير ؟ .
- لن يجيء .. الآن .

جلست تدفئ يديها الحمراوين .. ناولتها سيجارة مشتعلة ووضعت إبريق الشاي على المدفأة .

وبدأت أتذوق دفء المرأة رغم الصقيع . أدركت للمرة الأولى وبهذه القوة مدى حاجة الرجل للمرأة . هذا الحضور الكبير .. أنها زينة البيت ولا يدرك معنى هذه الزينة إلا من حرم منها مثل أن تنهض هالة الآن . فأحس قبل كل شيء فراغ هائل ونقص كبير وغياب شيء هام . وربما بانتظار الخميس القادم لأحس بهذا الدفء وهذه الزينة في غرفتي الكئيبة .

مدت يدها إلى البطاطا وبدأت تقشرها . عرفت بأنها ستحضر لنا الغداء قبل أن تنصرف .

- هالة نتسبب لك في خلق المشاكل مع زوجك .
- أنتما أضفتما قيمة جميلة إلى حياتي .. لولاها لكنت الآن تعيسة . أنام أصحو .. ولا أنتظر شيئا .. كم كانت حياتي باردة الآن أحس بدفء المسؤولية تجاهكما ... وأتعلم منكما حب الحياة والتعاون والاستمتاع بكل لحظاتها .. أتعلم منكما ما كان علي أن أتعلمه منذ عشر سنوات . وهذه الساعات هي أغنى أوقات حياتي وأثراها .. سأحتمل أي شيء من أجلها .. غدا الجمعة وأنتما ترتديان الثياب التي غسلتها لكما وتمران بجانب بيتي لحظة ذاك أنسى أي شقاء وأكون سعيدة حتى آخر الليل ها هي هالة ما تزال تواظب على زياراتها لي رغم تنكري لكل الخدمات الانسانية التي قدمتها .
- الملا مريض ، ألا تزوره ؟
- لا جديد .. الملا دوما مريض .. أتعرفين يا هالة الإنسان يولد مريضا ولا يشفى إلى اليوم الذي يموت فيه . والأيام تمهد للموت وتقربه .
- ماذا حدث ؟
- لا شيء يا هالة .. لا شيء ...

- نهضت وقد بدا جسدها يفرز كميات وفيرة من العرق ويلفح أنفاسي ، أوليتها ظهري .
- - ما بك .. حقا .
- لست مهيئا يا هالة .
- أنا لا أعرض عليك جسدي و أفهمت ؟
- شكرا .

وقالت بشفتين متهدلتين : يا حبيبي أنا آسفة لكن أرجوك لا تعاملني " كزانية " هذا الإحساس يطاردني كشبح .

- أنا أتألم يا هالة .. أتألم .. أننا نخون شيركو بهذه العلاقة ونخون زوجك .. نخون المجتمع والعدالة .. علاقتنا غير شرعية ويجب أن تنتهي .
- بهذه السهولة يبعدك الحرام عن هالة .. هالة التي منحتك كل شيء ألا تستحق أن تحتمل من أجلها الحرام ، أن تحتمل من أجلها يوما واحدا في الجحيم .
- أنت دوما تمارسين الإرهاب حتى في أحاديثك .

أذكرك مرة أخرى بأنني منذ البداية شرحت وضعي لك وأذكر بأنني قلت : لا يمكن لنا أن نتزوج . وما زلت على ثقة بأنني سأمد إليك خيطا من الدخان لو وعدتك بشيء آخر ..

أمسكتني من كتفي وهزتني بقوة : يعني ستقطع علاقتك بي ... وستتزوج .

- يا سيدي لا أفكر بهذا النحو . كوني هادئة أرجوك نحن نتحدث لا نتشاجر .. ثم أنا أدافع عنك .

كوني واثقة بأن امرأة عاقلة لا يمكن أن تقبلني زوجا يا هالة لا شيء لدي ..

وجلستُ على طرف السرير أشرد ببروين .. أعد مجرد وجود هالة في غرفتي طعنة في ظهر بروين .. خيانة عظمى لنظرات تلك الطفلة التي تعلق بي الآمال والطموحات .

بروين .. وردة وحيدة في حديقة مهجورة .. بروين صراخ طفل وسط مجزرة هائلة .. بروين صحوة التاريخ ، في الطرقات .. في المواقف .. في الحارات .. كنت أبحث عن نساء ولا أخرج من الغرفة إلا لأجلهن .. وأهدر الأيام التي تمر علي تلك التي لا أرى فيها امرأة جميلة .

الآن اتحدت النساء في جسد واحد ، التحم الجمال كله في وجه واحد واجتمعت الأنوثة كلها في امرأة واحدة .. بروين علقت مشنقة رجولتي منذ نظراتها الأولى وأصبحت القضية عشية الاغتيال .

- بشير دوما يقول لي : النسوان مثل الأحذية بالنسبة للرجل كلما اهترأت وجد البديل .
- أنا خارج الموضوع .
- ستنساني يا غدار وتنسى الخوف والرعب والانتظار وشيركو .. تتخلى عن كل تلك الذكريات ..
- يا هالة أنا أحب .
- أنت وقح .. مجنون ... فوضوي .

خرجت الكلمات وانغرزت في قلبي كالرصاص : يا هالة أنا أحب فتاة ممرضة اسمها بروين .

- كنت واثقة بأنك وجدت البديل يا قاسي .
- أنتِ الآن ماذا تريدين مني .. كفى ، لقد ضاجعتك في الأيام الماضية وانتهى كل شيء هل .. هل كتب علي أن أضاجعك إلى الأبد .
- كنت أعرف بأنك تعاملني كزانية .. لكن لن أتركك سأفضحك وأنتحر .

أجل سأكتب رسالة طويلة وأحملك مسؤولية انتحاري .
- أنت مجنونة .. أم أنا ؟ .
ووقعتْ على وجهي تقبلني بشراسة :
هل ستنسى هالتك التي تخلت عن كل شيء من أجل أن تكون لك .. أجل لك .. أتعتقد بأنني أعيش من أجلك مخلوق آخر غيرك .. أنت كل شيء وعندما أفقدك أفقد كل شيء .. أنسيت دموعنا .. أنسيت كيف كنت أمنحك جسدي .. وتفعل به ما تشاء .. خلال تلك السنوات وأنت تضاجعني .. هل ضجرتني .. أي شيء آخر تريد وسأقدمه لك .. سأسرق .. سأتسول .. سأعمل .. سأبيع ثيابي وأغراض بيتي .. أرجوك كن لي .. اضربني .. اشتمني .. شد شعري بقسوة .. اصفعني بعنف ..
ضاجعني .. أنا كلبتك .. تعال يا حبيبي ، اقذف بجسدك فوق جسدي كل الأبواب ستنفتح أمامك وستعوم كسمكة في مياهي .. كل شيء سيركع بحضورك . ولا صوت يعلو صوتك .. في الشتاء عندما يتساقط المطر سنمارس الجنس تحت السرير مثلما كنا في السنوات الماضية .. وفي الربيع عندما تشرق الشمس وتملأ الحدائق سنمارس الجنس تحت شجرة الياسمين وهناك عندما يغفو القراصنة ويستريح القطار على السكك الحديدية ، سنمارس الجنس في عربات القطار الواقفة . عندما يأتي البرد سنلتحف الجنس وعندما يأتي الصيف سيكون الجنس مروحة سقفنا .
تعال يا حبيبي خذني إلى أماكن بعيدة مجهولة بعيدة عن كل هذا العالم وهناك سنمارس الجنس ولن نموت وإن متنا سنُبعث من جديد كي نمارس الجنس ،، سنبعث لأننا مساكين .. لأننا نحب بقوة .
- يا هالة أي شيء أصابك ؟

- هل ستعطيك بقدري ؟؟ لا تصدق أن هناك امرأة واحدة على وجه الأرض تمنحك مثلما أمنحك وليست هناك امرأة تستطيع أن تأخذ منها بقدر ما تأخذ مني .

الست إنسانا ألا تستوعب ؟؟؟

أذن لنتفق

- بعيدا عنها .
- قريبا منها .
- من أين طلعتْ لي هذه المصيبة ، أين كانت .

ابنة أي فاجر هذه (القردة) ؟؟؟

- اخرسي يا هالة .
- قردة وابنة (قردة) .

وصفعت وجهها قالت : زانية ، شددت شعرها

قالت : سافلة ، من أجل وغدة تضربني يا خائن .. اضرب .. لن أقاوم .

- أنت قردة ... هي أطهر منك يا عاهرة ...

رفعتْ رأسها تنظر إلي بعينين دامعتين والدم ينزف من فمها .. ويا أماه أي مشهد مدمر هذا .. أي ضياع .. أي ظلم .. أي قمع .. أنا الذي أضرب هالة .. وفقدت السيطرة بزمامي : افعلي بي كل شيء لكن لا تلوثي بروين بسوء ، لا تمسيها بكلمة طائشة . أبدا بروين وحدها ستبقى نقية وإلى الأبد .

أتعلمين يا هالة ماذا يعني \ بروين \ بروين هي الصحوة .. هي الحضارة .. هي الجذور هي التاريخ ...

أتعلمين أي موت بعث بروين ؟

وصرت مستعدا لارتكاب أية كارثة تدون اسمي بخط أسود في قائمة أسماء المشعوذين .

أعترف يا هالة ، لم يتحمل مخلوق جنوني مثلما تحملتِ .. لم يتقبل طيشي مثلما تقبلت ، ولن يتقبل أحد فوضويتي وقسوتي مثلما تحملت .. اعذريني يا هالة .. اعذريني .. وامسحي هذه الدموع أنا نادم .. نادم ... نادم حتى الغرق .. آسف على كل صفعة .. على كل لطمة .. على كل كلمة جارحة ... اغفري لي يا هالة ولا تمسي بروين بسوء .. بروين هي أختك كوني لها أختا كبيرة .. وانصحيها ، بروين مسكينة يا هالة .. أتوسل إليك بحق شيركو الغائب .. كلنا نعيش في الدرك الأسفل من الجحيم وليس بوسعنا إلا أن نحترق .. ونحترق .. ونحترق .

تتمدد هالة إلى جانبي تدير وجهي إليها : انظر في عيني .
تضع رأسها على ساعدي وترفع يدي الأخرى تضعها على ثديها وتضغط بكفها على كفي بشهوة عارمة : أين شراستك حينما كنت تخدش طفولتي ؟ أين فوضويتك التي طالما عبثت بها بجسدي ؟ اضغط على نهدي بقسوة ، اضغط بشراسة .. مارس علي الإرهاب مثلما كنت ، تفرّس جسدي ، شن عليه سهامك ، مزقه ، ماذا يحدث لو متنا معا الآن .
أصابعي تزحف إلى مساحة الجسد الأنثوي الملتهب ، يزداد الجسد اشتعالا ورغبة .
تجلس بجسدها في الفراش ، تخلع الفستان والبلوزة ، وأقذف ثيابي .
تتمدد عارية تحت البطانية وتمد يدها إلى يدي ، ثم إلى عضوي .. تقول : هذا لي ، لهالة ، ها هو ينهض على هالة مثل حصان كما اعتدته ، دعه يخترق معدتي وكبدي ، دعه يقبـّل زهرة هالة ويمزقها ، ألم يحن لزهرتي ؟ ها هو يجيب ، دع لهما الطفولة ليتمازجا ليتصالحا .

وتمتد يدي إلى سرتها ، تنزل وتستقر على الشورط واضغط على الوردة التي تستريح في أعلى الفخذين تلك الوردة التي لا أملها .. تتأوه بنشوة : بقسوة أرجوك أين عنفوانك ، اخلع الشورط مزقه .

يتزحلق الشورط من الأعلى كخرقة بالية وتأخذني في حضنها ، تمسك برأسه وتدسه في عتمة الوردة ، تنقلب على جسدي وتجلس ، تمد ساقيها ويرتفع النصف الأسفل من جسدها ويهبط وتفترس شفتي السفلى ،،، العليا ثم تضع أصابعها على شفتي كأنها تفتش عن جرح خفي بحذر تام : ألن تستمع إلى الموسيقا الخافتة .. لا تخف شمعة الغريزة تنوس لكنها لا تنطفئ .. أتسمع يا سيد . وتدندن مع الموسيقى : اسمع ، اسمع ، اسمع بحق الرب هذا المقطع الموسيقي المزلزل ، رجفة الكمان ، أنين الناي .. وانظر هنا ، الأكورديون يضرم الحريق ، الأنغام تعانق الإيقاع ، العود يتمرد على النوتة وكل في فلك يسبحون
أي حالة جنونية فجرت هذا اللحن الخالد ، وفي أي ركن من العالم اتحدت هذه الأنغام .

- هالة ..
- دعني أقول كل شيء بحق الرب ، قل ما هي عقوبة مدمني الموسيقى والجنس في شريعة محمد .
- مهلا يا هالة لا تفقدي نفسك ، ستعودين الآن إلى البيت اهدئي .

وتركت السرير، رفعت المخدة ، سحبت من تحتها قنينة العرق ، ملأتُ كأسا وجلست على الكرسي عاريا ، ولبثتْ هالة في السرير أشعلتُ سيجارة وملأتُ كأسا أخرى بعد أن رشفت الأولى دفعة واحدة قالت هالة : أعطني كأسا أشعل لي سيجارة أليس من حقي أن أحرق سيجارة واحدة في هذا العالم الذي يحرقنا كل يوم ؟؟؟

ناولتها الكأس والسيجارة وجلست على حافة السرير .
رشفتها هالة دفعة واحدة وملأت كأسا أخرى : دعني أقول كل شيء ، ساعة في عالمك المغلق برفقة الخمر والجنس والدخان ، ساعة من التمرد الحقيقي تعادل عمرا من الكبت . هل ستخونني وهذه الثياب إن خنتني ذات يوم تذكر أنني نزعت ثيابك وإن تعرفت بامرأة أخرى تذكرني ، ربما تتردد وأنت تتذكر ، وشعرك تذكر أناملي كلما تسرحه ، وهذه الموسيقى التي ستقتلني تذكرني كلما سمعتها ، تذكر هالة التي منحتها أنعش لحظات حياتها أيها السيد ... وغرقت في ضحك عميق : أليس مجنونا من يدع هذه اللحظات تمر دون أن يستمتع بها ؟؟؟ ويتحدث عن السذاجات والرومانسيات .

- هل كانوا حقا رومانسيين يا هالة ؟ كم كانوا جهلاء سذجا .
- انظر إلى حساسيتك ، أنا لا أقصدك ، تخل عن هذه الحساسية أرجوك اشرب كأسا أخرى .
- مَن تقصدين ؟
- تنكة
- الملا
- قلت له مرة يا ملا ألم تنم حتى الآن مع امرأة ؟؟
- أنت جريئة يا هالة هكذا وبدون حياء تتحدثين مع رجل وفقيه بعمر جدك ، طيب وبم أجاب ؟؟

استدارت إلي وبدأت تتحدث ببسمة طفيفة : مرة واحدة أحب واحدة تدعى " مريم " كان آنذاك في الأربعين و كانت تصغره بعشرين سنة .

- اكشفي لي أوراق تنكة السرية كي اهدده بها ، يا تنكة المسكين ألم تجد غير إذاعة هالة تبثها أسرارك ؟؟؟
- دعني أكمل ، أين وصلت ؟؟

- إلى : أحب واحدة تصغره .
- نعم نعم وكان يعلّم الأطفال قراءة القرآن ، وفي الليل يقرأ كتب الفقه بجنون حتى مطلع الفجر وعندها يذهب إلى المسجد ويؤذن .

مرة جاءته مريم وسألته عن أختها التي تتعلم قراءة القرآن في داره ويبدو أن الملا غازلها فرفعت ساقها له وانصرفت ..

قلت مقاطعا إياها : أمن أجل ذلك يبكي كلما يرى ساق امرأة ؟؟

أردفت دون أن تجيب :::: صارت تقدم له في الأمسيات أطباق الحلوى وأفخاذ الدجاج واللحم المملح النيء والقديد ليشويها ويأكلها ويتذكر مريم ، وأحيانا ترسل زبدة ولبنا وسمنا وبيضا وخبز التنور الساخن إليه مع أختها الصغيرة ، كل هذا الاهتمام جعل الملا يوليها فكره إلى أن كتب لها ذات ظهيرة رسالة : مريم ، عندما أؤذن أحس بأنك تستمعين إلي لذلك أضيف آيات مطولة بعد الآذان وقبله .. كأنني أقوم بهذه الوظيفة لك .

وأجابت مريم برسالة جوابية :

ملاكي وسيدي وقرة عيني أسهر حتى الفجر لأسمع صوتك المبارك وأنام على نبراتك الحنونة : حيا على الصلاة ، حيا على الصلاة .

وذات مرة كان الملا مستلقيا في فرشته فسمع صوت مريم من الخارج يهتف به : ملا ملا افتح الباب بسرعة .

- مَن .. مَن ، قال الملا قبل أن يفتح الباب .
- أنا مريم يا ملا افتح
- أنا لا أعرف النساء أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(لم يجتمع رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما)

الوقت المتأخر لا يسمح لي بفتح الباب حتى ولو كنت مريم العذراء .

- افتح ولن أدخل .

فتح الباب ونطت مريم إلى الداخل فخرج الملا ملوحا بيديه كي تخرج وإلا سيصرخ .
استلقت مريم في فرشته وقالت : اصرخ يا ملا ، اصرخ .. دخل الملا وأغلق الباب بحذر .
قالت مريم : لقد مات جدي وبقيت وحدي مع أخوتي الصغار دعني في حضنك أنا خائفة .
تمدد الملا على الحصيرة واستلقت إلى جانبه - مثلك ومثلي الآن - وبعد قليل ارتفعت حرارة الملا وأخذ يلتصق بجسدها ، ويرفع ثيابها مع مقاومة لينة من مريم كانت تشجيعا له كما يقول ، فتحتْ البنت فخذيها ودعته ولم يدن ،،، لبث يهدهدها ويبكي ، وينظر إلى فرجها بين الفخذين ويبكي ولما رأته على هذه الحال وجسدها ابتل بدموعه ارتدت ثيابها وخرجت مذعورة ،،، نادمة على الكميات الوفيرة من الطعام واللحم التي أرسلتها إليه دون فائدة بعد أن صفعته ظانة أنه فارق الحياة ويبكي على نفسه وهو ميت .
قلت : هو حر لا دخل لنا به لعله ظفر بمتعة وهو يتأمل الجسد الأنثوي الطازج أكثر من ممارسة الجنس نفسها .
رشفت هالة آخر ما تبقى في الكأس وقالت : أما أنا فأقول أنه كان يلفظ روحه بين نهديها وأنه عجز مما لا يمكن لك أن تعجز من القيام به في أي لحظة تشاء ،،، أنظر أيها السيد ليس بوسعك أن تقول أن الفقيه كان سعيدا ، إنه أتعس مخلوق على وجه الأرض في لحظات كهذه .
نهضت وبدت تترنح ، مدت يدها إلى آلة التسجيل ترقص عارية وفي لحظة طائشة غمرني شعور طائش :
دخني يا هالة ،،، دخني وارقصي بصخب وجنون ، ارقصي على مؤخرة تنكة ، حطمي زجاج النافذة ، ثوري ،،، مارسي كل أبعاد

الفوضوية ، حطمي كل ما يقع في يديك ، ارفعي الصوت إلى السماء السابعة .... ورششتُ ما تبقى من خمر على الجدران ، حطمت القنينة بالسقف .
الآن لدي الرغبة لإزعاج العالم كله ووضعه في استنفار أبدي .

تحمر عيناها .. تدمعان .. تواصل الرقص البريء .. التلقائي .. يقول الرقص ما ليس بوسع اللغة التعبير عنه .. تغرق في إفرازات الحالة المسيطرة عليها .. و ببطء تستريح على البطانية الممددة .. تتحول إلى كتلة شهوة .. أندفع إلى جسدها العاري الممتلئ بسحر الجنس وتطن عبارتها في مسمعي :
الجنس يلبث مشتعلا إلى الأبد .. أدس شعرها المبلل خلف أذنيها ..
يضيء الوجه ... يشرق بنور الإنسان .. لم أتردد للحظة من قذف كل ثيابي إلى الشارع .. ويسقط عريي في عريها .. أنزف روحي : هالتي .. ما الذي يحدث .. هذا الجسد أهولك .. هذه الرائحة ، أهي رائحتك ...

تئن كجنين .. تعود إلي من غيابها .. تنظر إلى جسدها .. ثم إلى جسدي .. ثم إليها .. ثم إلي ، تدرك الواقع إدراك الولادة وتتساقط دموعها يهدر الصوت : ألا يكفي جنسا إلى الآن ...
- هي مرة أخيرة ..
- لن تجدي .. دعها للغد .. لم ينته كل شيء ...
أمتص حلمة الثدي .. أمضغها كعلكة سماوية مباركة .. تذوب هالة تحت تحتي .. تحت سقفي .. تحت سمائي : هالة .. هذا كل ما لدى جسدي يقدمه لجسدك .

صدري يكاد ينفلق نصفين ، قلبي يهبط ، تتقطع أنفاسي ، أقع منهوك القوى ،، لكن الحيوان الشرس يتحرك كدودة نارية للمرة الخامسة ويثير الرغبة تحت الجلد ، وتلهث هالة وهي تشد شعري : كفى ستحطم نفسك أنا لك إلى الأبد أتريد كل شيء في يوم واحد في لحظة واحدة ؟؟؟

- بهذه الطريقة أحيي نفسي وأنقذها من الموت من الأمراض التي لا تشفى وازداد تمسكا بك وازداد تعلقا ببروين شجرة الزيتون المباركة : (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .
- لقد نفذتْ قواك انهارت نشفت مياهك وجهك تغير سأطلب لك الإسعاف السريع ، دعني سأسحب جسدي ...
- أبدا سأنتصر ، الاستسلام أسلوب الموتى ، سأروّض الغريزة وستعود إلى التألق والشموخ والرجولة كأمطار الشتاء الغريزة الطوفانية ، لم أعتد على الاستسلام ، لن انهزم ،، فقط الشمعة خفتت ،
- ستنفجر خصيتاك كفى .
- أيها الجسد هيا انتصر ويا أيتها القوة انبعثي من جديد ، مدّي الجسد حركة واحدة ، اشحذيه نطفة أو نطفتين ، لن انهض قبل الانتصار انتصر أيها المفكك .. لملم قواك .
- دعني أطلب لك إسعاف ،،،، لقد انتهيت دون أن تدري ستصبح مثل تنكة ، أنت سكران حتى شعرك توقف ،،،، لا تملك إلا أن ترتعد هكذا سأخسرك إلى الجحيم .

وصرخت هالة صراخا مباغتا امتلأت الغرفة بالصوت المرعب وصرختُ بأعلى صوتي : أيتها الموسيقى مارسي دورك بعنف ، أيتها

السجائر قليلا من الشجاعة ، أيها الجسد الجبان كف عن هذا الارتعاش ...

أيتها الغريزة لك كل الأنوثة كل هذا الطقس وأنت يا حيواناتي اللا مرئية اسبحي في بحيرة هالة اسبحي .

انتصر أيها الجسد أو مت وأن مت ستكون شهيدا ، الشهادة أو النصر ، أما الرجوع فمحال .

نسمة لا واعية تتسرب إلى مخيلتي وانقلب على ظهري منهوك القوى ، استرخي فاقد الوعي ككلب مفكفك المفاصل على زبالة مهجورة .

الإخفاق الثالث

لاشيء أمامي ، لاشيء خلفي .
لاشيء انتظر ، لاشيء ينتظرني .
الفرشة مقبرة تدفن جثتي طوال الوقت .. لا رغبة لي في النهوض منها ، لا مكان أذهب إليه .. لا أصدقاء لي .. لا أقرباء .. لا أحد يعرفني .. لا أعرف أحدا ، كعادتي سأدور في السوق ، وسيبصقني السوق ثانية إلى الفرشة المقبرة .
ما أقسى أن يكون الإنسان موجودا وغير موجود في فترة زمنية واحدة ، أن لا يستطيع إثبات وجوده ... أن يماثل وجوده اللاوجود .
كل حياتي فراغ ، في فراغ ، في فراغ .
الفراغ وحش مفترس يلتهم كل أوقاتي ، أترى لو أقنعت الجميع بحقيقة وجودي سأتخلص من هذا الإحساس المؤلم بالعزلة ؟... كيف ذلك وأقرب الناس إلي يتجاهل هذا الواقع .
ما أزال أذكر كل شيء .. وجودي .. قريتي .. أبي .. أمي .. أخواتي .
لن أصدق بأن ذلك كان وهما وأنني جئت هكذا بدون أن يكون لي أقرباء .
أمي كانت تهرس الفستق في فمها وتدسه في فمي ، وكانت تطبع على معصمي ساعة بأسنانها .
أترى حقا يمكن للمرء أن يتذكر وقائع لم تحدث قط .

ذات مساء نمت كالعادة في غرفة نومنا إلى جانب أخي \ ولات \ الذي يكبرني بعامين وكان في الرابعة عشرة من عمره ، وإلى جانب فرشتنا فرشة أختينا \ باهوز \ و \ يلدز \ وفي الغرفة الأخرى كان أبي فرمان ينام مع أمي \ آه \ .

كنت أحس بأنني أقرب أخوتي إلى قلب أمي وأذكر عبارتها ونحن على مائدة الطعام :

" أنت ضعيف البنية يا ولدي .. كل جيدا " .

وكانت تدس قطع اللحم في فمي وفي الصباح عندما أذهب إلى المدرسة تعطيني نقودا بشكل يومي وتقول : " أريد أن تصبح بدينا كأخيك ولات " . وتوفر لي كل أسباب الطمأنينة النفسية ولا أذكر بأنني اشتهيت شيئا دون أن أظفر به . وما تزال ذاكرتي ضعيفة تحتفظ بذكرى كنت فيها في السابعة من عمري لأنني كنت في الصف الثاني الابتدائي . جلبت فتاة صغيرة تماثلني في السن إلى المطبخ وأردت مضاجعتها لكن أمي كشفت أمرنا عندما طبت علينا بغتة ولم تفعل شيئا فقط قالت يا شقيين منذ الآن .. ولم تكمل ثم طردتنا من المطبخ مثلما تطرد حيوانين أليفين ليتضاجعا في مكان آخر .. وبعدها اشتهيت الدخان وكانت أمي من المدخنات وتدخن في اليوم علبتين من السجائر .

قالت :" أجل .. أجل .. أنت رجل يا بني وعلى الرجل أن يدخن حتى يجالس الرجال ". وأعطتني علبة دخان " دخنت منها سيجارتين وأعدت العلبة إليها بعد ساعة لأنني لم أستطع تدخين المزيد . أنا لست مجنونا .. المجنون لا يتذكر .. لست مجنونا وإن لم أكن عاقلا وأعترف بأنني لست عاقلا ، لكن لست متهورا أيضا وإلا لمزقت ثيابي .. لحطمت المسجلة .. لقمت بأعمال تلفت الأنظار إلى سلوكي أما والدي فكان يربي الأغنام ولا يتدخل في شؤوننا تاركا كل ما في البيت لأمي . وأمي تحتفظ بجميع

الأموال وتعطيه خرجيته وأحيانا لا تعطيه : " فرمان .. تأكل وتشرب وتدخن وتنام في البيت لا تصرف النقود الأولاد سيحتاجون إليها . ألا تريد أن تترك لهم شيئا إن متنا " .

كنت ألاحظ بأن أبي يختفي عن البيت أيام الأسبت منذ العصر ولا أراه إلا صباحا ، وعندما أود معرفة ذلك من أمي تقول بأنه يذهب إلى القرى في تلك الأيام ليعرف أسعار المواشي من الذين يبيعون مواشيهم ويذهبون إلى سوق الأغنام كل أسبوع .

كان عمري لا يسمح لي بالتدخل في شؤون أبي الخاصة ، لكن تطفلي وولعي الشديد بمعرفة الأسرار دفعني إلى مراقبة أبي مساء السبت القادم . فقد طلب نقودا من أمي كعادته وأعطته بعد ساعة من التردد أعطته كمن يقذف ماله في بحر وخرج أبي مهرولا ، فلاحقته من شجرة إلى شجرة .. ومن زرع إلى آخر .. ومن ساقية إلى تل .. حتى وصل إلى ضيعة تبعد عن ضيعتنا مسافة خمس كيلو مترات .

لحقته كالظل إلى أن دخل بيت رجل آشوري يدعى " خوشابا " رأيته قبل الآن في بيتنا لأنني كنت أعبث بدراجته النارية العتيقة من نوع / ستار / عندما كان يأتي إلى بيتنا ليستدين بعض النقود . زحفتُ نحو النافذة عندما رأيت خوشابا يقود أبي إلى الداخل مرحّبا به . ورأيت من خلف النافذة رجلين آخرين يجلسان في بيت خوشابا .. وبدؤوا جميعا يُخرجون نقودهم .. ويلعبون بالورق ويتناولون السوائل المختلفة من زجاجات متراكمة بجانبهم .

لم أكن حتى ذلك الوقت أعرف ماذا تعني الخمر وأي شيء تفعله .

انتظرت إلى ساعة متأخرة وقد غلبني النعاس وصرت أخاف الحيوانات المفترسة التي تعوي بين الظلام فرأيت أبي يخرج بغتة ويسلك طريق العودة وهو يترنح ويغني ويشتم أمي .. يسقط على الأرض تارة وينهض

أخرى ويتقيأ ، لأول مرة أرى أبي بهذه الحال .. أبي الذي يعني لي قوة العالم ، الحائط الذي أستند إليه .. ينهار .. يهتز .. يقع .. أبي كان كل شيء ، حتى أنني طلبت منه أن يشتري لي طائرة لأنني أعتبره فوق السلطات وأعتقد بأنه شعور طبيعي لدى جميع أطفال العالم .. كنت أحيانا أقول له : اشتري لي شرطيا من المخفر .. إن الأب يشكل كل هذه القوة والقدرة لدى الطفل .. تلك القوة انهارت ، والقدرة تلاشت وأنا أرى أبي في حالة سكر شديدة وحرصت ألا يلمحني إلى أن وصلنا البيت .

كانت مستنفرة في انتظاره وما إن رأته حتى جرت إليه وقادته إلى الغرفة وهو ما زال يشتم ويصرخ ويتقيأ ويفزع حتى الأغنام في الحظيرة .

دخلتُ غرفتنا خلسة واستلقيت إلى جانب أخي / ولات / وعرفت بعد أسبوع بأن أمي كشفتني وطلبت مني أن أكون " عاقلا " وأسدت إلي بعض النصائح .

هكذا كان أبي يمضي أيامه في الكد والشقاء ليؤمن لنا مانشتهي ، وتعينه في ذلك أمي التي تستيقظ فجرا وتكنس الحظيرة طولا وعرضا وتحمل روث الأغنام في طشت كبير ، تحمله على رأسها وتقذفه في الخارج ، ثم تنقل التبن والشعير إلى الحظيرة وتحلب الأغنام واحدة واحدة وكانت تبلغ مائة غنمة ، ثم تجد الوقت لتصنع اللبن والجبن والزبد وتغسل الثياب .. تغسل رؤوسنا .. تكنس البيت .. تحضر الطعام لم أكن أراها جالسة إلا وتعمل .. وعندما تجلس في الليل فلا بد أن تحمل شيئا بيدها ، إما أن تخيط .. أو تفكك خيوط كنزة بالية لتصنع بها سجادة ، أو تنظف القطن .

تلك المرأة المنسية في تلك القرية لم تكن تعرف الفراغ .

في شهر نيسان يبدأ أبي في شراء المواشي لنربيها جميعا حتى تسمن فيبيعها بعد نحو ستة أشهر من الرعاية ، وفي شهرَي آب وأيلول يتوافد إلى قريتنا كبار تجار المدينة ويحضرون معهم شاحنة لشحن المواشي إلى المدن الكبرى ، كانوا يجلسون في الحظيرة ويصوبون أنظارهم إلى الأغنام ، وأحيانا ينهضون ويحملون بعضها في محاولة لمعرفة ثقلها .. ثم يعودون إلى الغرفة يضعون أكفهم في كف أبي : " قل بارك الله يا فرمان " . ينظر أبي من خلف زجاج النافذة ، أو من شق الباب ليرى أمي تشير إليه بعدم التسرع في قول تلك العبارة الحاسمة .. كان أحدهم يقبض بكلتا كفيه على كف أبي ويهزها بعنف قائلا بصوت مرتفع وبجدية بالغة :" قل بارك الله يا فرمان ..
هذا سعر جيد " .

ويتردد أبي في قول تلك العبارة وكأنها كانت تعني بيته وأولاده معا ، و كنت مع ولات نقدم لهم الطعام والفاكهة والشاي ، ثم أسكب على أياديهم الماء الساخن ، وعلى كتفي بشكير .

وأخيرا وبشق الأنفس يصلون إلى اتفاق ، وكأن شمسا تشرق ، فيتنفسون الصعداء ، ونحس كذلك معهم .

يخرجون حزما هائلة من النقود ويسلمونها لأبي بعد أن تمر في أياديهم جميعا ، ونخرج جميعا نساعدهم في سوق المواشي إلى السيارات المقطورة ذات الطابقين .. كان هؤلاء يكنسون جميع ما في القرية والقرى المجاورة من أغنام .. وكم كنا نحس بفراغ هائل عندما تخلو الحظيرة من المواشي في فصل الشتاء وننتظر بفارغ الصبر أن يشتري أبي ماشية جديدة في شهر كانون الثاني ، الشهر الأول من العام وحتى شهر نيسان .. تلك كانت مهنة أبي وكان راضيا عنها كل الرضى .

بعد أن يتم البيع بيومين نذهب جميعا إلى سوق المدينة وتبتاع أمي لنا الثياب والأحذية والحلوى والموالح والفاكهة وما يلزم بيتنا من حاجات .
أما أبي فلم يشتر لنفسه شيئا ، لم يكن يهتم بمظهره ، فقد كان يرتدي ثيابا رأيته بها منذ أن وعيت.. كل جهده لنا .. نصرف ونلبس ونأكل ملء حريتنا ، صحيح أن أمي بخيلة للجيران ولا أذكر أنها أعطت غرضا لهم دون مقابل ، لكنها متلافة بالنسبة لنا ودوما تردد : نعمل لنأكل وكي لا نمد أيدينا لأحد .
مرة قلت لها قلت لها : أريد مذياعا يا أمي .
لأن ميولي كانت تتجه نحو الموسيقا و:انها عالم سحري يجذبني إليه .
فقالت لأبي بعد ثلاثة أيام : " الأولاد يريدون مذياعا يا أبا ولات " .
- لا نملك نقودا الآن .. انتظري حتى نبيع الأغنام .
- في الصباح خذ خروفا إلى السوق واشتر بثمنه مذياعا سيسليهم ، مَنْ لنا غيرهم ، ولمن نعاني إن لم يكن لهم ؟

أي دفء بمقدوره أن يعوضني عن دفئك .. كل شيء يا أمي يذكرني بك .. لماذا لا تعترفين بكل هذه الذكريات ؟ كل هذه أدلة تثبت بأنني لا أبتدع أوهاما .. وكنت في يوم ما من أبناء تلك القرية .. تركت ذكريات طفولتي على أشجارها ودروبها وروابيها .. لقد مللت الانتظار .. خمسة عشر عاما وأنا أنتظر .. فقط أماه عندما تريني قولي : " هذا ابني " .
لا أريد شيئا آخر.. أتعلمين كم أحن إلى النوم على ذراعيك .. للجلوس في حضنك .. لرشف الحليب من ثديك .. لأن أخرمش وجهك مثلما كنت رضيعا .
كل هذه الأعوام وأنا أعاني .. آه لو تدعيني أشرح لك ما أود شرحه .. لو تسمعينني لمرة واحدة .. أجل يا أماه .. - برأسك - كنتُ نائما مع أخي

ولات ، وفزعتُ في الليل .. كان كل شيء قد تم .. نظرتُ إليّ في المرآة ، ولم أرني .. لقد اختفيت يا أماه .. اختفيت .. لقد أخذوا مني حتى جسدي .. وهرعتُ خارجا لأبحث عني : بحثت .. بحثت حتى طلوع الفجر وفقدت الأمل .. سرت في اتجاه لا أدري إلى أين يوصلني .. أنا الطفل الصغير الضائع .. ماذا بمقدور هذا الطفل أن يصنع يا أمي سوى أن يمضي حياته ككلب أجرب من نهر إلى نهر ومن شارع إلى آخر .. غريب كنت في أحشاء السوق . أمضيت النهار كله بحثا عن دفء يقيني صقيع الليل .. انهارت قواي بحثا وركضا وجوعا ، غفوت لا أعرف متى وكيف .. وعندما صحوت رأيتني على رصيف نتن .. زحفت إلى أشعة الشمس .. أردت القيام وبدا مهمة مستحيلة ، كان الجوع والظمأ وآلام المفاصل والعمود الفقري .. وكان الصقيع والحنين والتشرد والضياع .

حططت كوع ساعدي على صابونة الركبة . وانفتحت كفي .. والناس يمرون من أمامي كجدول لا نهاية له .. يتمهلون للحظة ، يدسون قطعة معدنية في كفي وينصرفون .

مضت أيام .. ماتت أحلام وأنا ضائع على هذا الرصيف الذي أصبح مقر عملي .

بحثتُ في الأحياء عن غرفة حتى أرشدني أحدهم إلى امرأة عجوز وكانت تملك غرفة للإيجار .

عندما رأتني المرأة قالت : هل أنت طالب ؟.

قلت : لا ..

- أين أهلك ؟

- لا أهل لدي .

- من أين جئت ؟

- من قرية .

- أنت صغير يا ولدي عد لأهلك .
- لا أهل لي .. أبحث عن غرفة للإيجار أنام فيها .
وأعطتني مفتاح غرفة .. تلك المرأة العجوز الطيبة ،
صرتُ في بيت يا أماه وكل ليلة تعاتبيني على عملي السيء .. ومن أجلك يا أماه تخليت عن التسول .. من أجل عينيك تركته وابتعت صندوقا لمسح الأحذية كي أعيش بتعبي وجهدي .
لقد فرحت بعملي الجديد وبدا لي مربحا .. وتعرفت على جميع زملائي الأوغاد والطيبين .. من السابعة يا أماه كنت أبدأ وأنتهي في السابعة مساء .. أعود إلى الغرفة وأضع النقود في علبة كبيرة كي أعطيها لك عندما تعترفين بي .
سوق الأحذية لا يختلف عن الأحذية . وهناك رأيت أبي يا أماه .. رأيته يمر بجانبي .. ناديته .. فجاء إليّ .
نظر إليّ نظرة مطولة وقال : ماذا تريد .. لماذا تصيح بي .
قلت : ألا أنظف لك حذاءك ؟
قال : لا .. أنا أبحث عن ابني ..
- هل ضاع ؟
وصدف أن ناداني زميلي الذي يجاورني وطلب أن أصرف له ورقة نقدية ، فقال أبي : لقد هرب من البيت واسمه مثل اسمك .
- منذ متى ؟
- منذ شهرين
- إذا رأيته ستعرفه ؟
أجاب بغيظ : يا غبي أقول منذ شهرين كيف لا أعرفه ... سأعرفه لو رأيته بعد عشرين سنة .

وانصرف يا أمي .. انصرف بعد أن سألني عني وأخذ معه شيئا لا لون له ولا اسم .. تحول السوق في تلك اللحظات في ناظري إلى حذاء كبير .. أترى استنكرني لأنني أعمل ماسحا للأحذية . واحتقرت هذه المهنة الحقيرة بالفعل ، عرفت في تلك اللحظة أي خيانة نرتكب عندما نمسح أحذية الطغاة والغزاة .. كل أصناف البشر .. حتى السفاح والمجرم يأتي لنمسح حذاءه من آثار الدم ونغسل وجوهنا ببصاقه ، عرفت يا أماه لتوي بأن الإنسان أنبل وأسمى من أن يمسح أحذية .
جاء رجل ثخين غليظ .. حط حذاءه على الصندوق وقال : لمّع يا كلب .
قلت : وحدك كلب .. وتحولت المدينة كلها أمامي إلى حذاء عفن ، بصق الرجل عليّ وقال : إذن ما دورك خلف هذا الصندوق .
كنتُ ممرغا ببقع سوداء ، وصفرا، وحمراء كدهان حديث العهد .
قبضت بكلتا يدي على قدمه بعزم ودفعته إلى الخلف ليتردى على ظهره .
نهض الرجل وأخرج سكينا ودنا إليّ بوحشية . حملتُ الصندوق وقذفتُ به على وجهه ، وأحسست بالسكين تنغرز في خاصرتي .. فقدت الوعي مع الجرح الذي بدأ ينزف على الأرض ، ولم أصح إلا في المشفى .
أمضيت شهرا على سرير هناك وأخرجوني .. عدت إلى غرفتي .. ولبثت ثلاثة أيام أخرى على السرير .. خرجت مرة أخرى أبحث عن عمل جديد بعيدا عن سوق الأحذية .
كانت الحادثة تجربة استفدت منها وجعلتني أتعلق بالحياة ، وأتذوق تفاصيلها .

كم يغدو المطر جميلا وكم يحلو لي أن أمشي تحت المطر، والشمس من خلف الغيوم تبحث لها عن مخرج لتفترش الأرض الرطبة الخضراء ..

الأرض مرآة السماء ، تعكس أعماقها ولا مرئياتها الخفية هذا الصباح ، والشمس الدافئة تسترخي على الأرض الرطبة فتدفئها .

أرغب أن تخرج جميع الحيوانات من جوف الأرض لتستمتع بالشمس ، ويخرج جميع السجناء الذين يعيشون في سجون الحياة إلى أحضان الطبيعة والحدائق كي يشاهدوا هذا الصباح الذي لا يزورهم إلا مرة واحدة في السنة .

ثمة أشياء لا تكون جميلة إلا في أوقاتها ، عندما كنت طفلا كانت أمي تعطرني بذاك العطر المخفي في صندوقها الخاص الذي لا يظهر إلا مرتين في السنة ، مرة في العيد الصغير ، ومرة أخرى في العيد الكبير . عندما كانت تفتح الصندوق أتلهف للنظر لذاك العطر الذي له مذاق خاص يستقر إلى جانب بنطال وقميص وحذاء العيد .. ولم يخطر لي أن أرتدي الثياب أو أختلس شيئا من العطر في يوم غير العيد .. كنت أعتبر ذلك انتهاكا لحرمة العيد واعتداء على طقوسه .. كنت أعتقد بأنني لو لبست ثياب العيد في غيابه سيخاصمني ولن يعود إليّ مرة أخرى لأنني أسأت إليه .. العيد بالنسبة لي لا يزور إلا الأطفال الذين يخفون له الثياب والعطر والنقود طوال أيام السنة .

وأمي تغسلني في صباح العيد ، تلبسني ثياب العيد وتبخ عليّ عطره .. ثم تناولني كيسا فأخرج وأدور في البيوت مع رفاقي وأحس بأنني على علاقة وثيقة بالعيد وموفيا بعهده ، وأكون في محراب متعة لا تضاهيها متعة بدرجة أنني لا أريد أن تغرب الشمس حتى لا تأخذ معها العيد ، شمس العيد كانت أكثر سطوعا ، صباح العيد كان أكثر إشراقا .. ذاك الصباح الذي يحمل معه عالما من الدهشة والسكاكر والقبلات والهدايا .. فيه أمارس كل تفاصيل طفولتي أكثر من صباح أي يوم آخر .

كل طفل منّا كان يشعر بأنه هو العيد في ذاك الصباح ، وأنه هو شمس العيد التي تشرق ، لذلك كل واحد يشرق من البيت قبل أن تضيء شمس نهار العيد .
ثمة أناس بمقدورهم أن يعيدوا تلك النكهة الجليلة بنظرة واحدة إليهم ، ثمة أناس خـُلقوا فقط ليذكروننا بأشياء جميلة وبإنسانيتنا، وينبهوننا إلى ما تشغلنا الحياة والطمع والجشع ، إنهم يشبهون العيد ولهم حضور تلك الأيام المرحة .
في سوق الخضار وأنا أمضي أبحث عن عمل بديل لمسح الأحذية رأيت شابا يمكن له أن يصغرني بثلاث سنوات وأخمن عمره بيني وبين نفسي بسبعة عشرة سنة ، رأيته برفقة ثلاثة شبان كانوا يستريحون بفيء سيارة شحن ضخمة وتوقعت أنهم انزلوا حمولتها من (البطيخ) وينتظرون غيرها .
ألقيت عليهم السلام ورد اثنان أحدهما هذا الشاب الذي تسبب في ذهابي إليهم ، قلت : ألي مكان بينكم ؟
أذكر أنه ضحك وأجاب كأنه فهم أنني أعنيه بسؤالي وقال : أنت تبحث عن عمل ؟
قلت : إي .
قال : نحن أيضا مثلك .
قلت : لكن إذا أتت سيارة الآن ستنهضون لتنزيل حمولتها . وفهمت أنه وعدني وعدا بأنني سأعمل معهم عندما قال : تعال في الصباح وستعمل .
نسيت العملية الجراحية في خاصرتي ووافقت على كلامه ، وذهبت إلى البيت بفرح مَن عثر على عمل جديد بعد عطل طويل .
وجئت صباح اليوم التالي في الخامسة صباحا وما لمحني نادى بأعلى صوته مشيرا إلي : تعال ، ونظر إلى شابين آخرين وإلى رجل متقدم في

السن : صرنا أربعة ،،، وانضممت إليهم صعد اثنان إلى الشاحنة وبقينا في الأسفل كل واحد يناول رفيقه بطيخة من الأعلى فيتناولها الذي في الأرض ويقذفها بدوره إلى صاحب المحل الواقف في الداخل وأنا أناولها إلى سائق السيارة الواقف بجانبه في المحل ويعيننا .
أفرغنا السيارة بعد ساعة ونصف من العمل المتواصل فأخرج الرجل ورقة نقدية من بين حزمة ضخمة ، تناولها أحدنا وعرفنا بأنها أصبحت ملكا لنا .
قال الذي بين يديه الورقة : خذ يا شيركو اصرفها .
لقد عرفت اسمه (شيركو) وعندما لا أراه سأسأل عنه .
كنت جديدا وكان علي أن أقبض أقل منهم وهذا ما توقعته ورضيت به ، لكن شيركو عاد وأحالها إلى أربعة ورقات وناول لكل واحد ورقة .
واصلت العمل مع شيركو وفي كل يوم أود أن أتحدث معه بعمق ، لكنني أتردد ، ومرة شتمه أحد العتالين فعرفت بأنه يتيم .
بعد عمل نحو أربعة أشهر شعرت بجرح العملية ينزف عندما حملت على ظهري كيسا كبيرا من البصل ، وقعت على الأرض ورأيتني مرة أخرى في المشفى وهذه المرة لليلة واحدة .
طلب الطبيب أن أتوقف عن المشي عشرة أيام وقلت لشيركو الذي كان معي لأول مرة أنني استأجرت غرفة ولا أحد لي في العالم كله ، فجاء معي من المشفى إلى الغرفة وحدثته عن طفولتي ، وعن العذاب الذي أراه في حياتي بسبب عدم وجود أحد لي ، وبسبب جهلي للحياة ، وحدثني عن طفولته القاسية التي أمضاها ويمضيها في بيوت الغرباء والذين يعطفون عليه منذ أن وجدوه ذات يوم من أيام الصيف الحارة في قماط أمام باب مسجد وهو في الساعات الأولى من عمره ، وعرفت مدى صعوبة أن يُرفض الإنسان من قِبل أبوَيه منذ اللحظة الأولى من مجيئه إلى هذا

العالم ، أن يكون غير مرغوب فيه منذ فتحة العين الأولى ، أنه جاء نتيجة زنا ، وأنه ليس كبقية الأطفال ، لا أب له ، ولا أم ، ولا أخ ، ولا أقرباء .. إنه الوحيد الذي لا يعترف بشرعيته أحد في الكرة الأرضية .

ولكنني أفهم شيئا واحد وهو مهم بالنسبة إلي أن الطبيعة قد عوضته بهذا السحر الجليل في وجهه ، أن براءة العالم تظهر في وجهه الجميل ، وهو يستمد هذا الطهر من داخله .

يقول : إنهم يقولون لي : أنت سيد .. لأنني ولدت كما يقولون (بسنة النبي) ويقولون : (الملائكة طهرتك) .

وافق شيركو أن يأتي ويسكن معي في الغرفة لنبدأ فصلا جديدا من حياتنا ،، ففي اليوم التالي جلب أغراضه من إحدى البيوت التي أشفقتْ عليه ..

رغم ميلي الشديد إلى العزلة التي فُرضت علي وانسجمت معها .. أصبح حضور كائن آخر يحتل ذاك الانسجام بحياة العزلة .. ولأول مرة عرفت معنى أن ينجذب الكائن لكائن آخر .. عرفت أن الحب أفضل من اللاحب والحب هو الشعور الوحيد الأكبر الذي يدخل المسرة إلى النفوس ،وبدون الحب يبقى الإنسان ضائعا ... تعلمت من هذه العلاقة أن أزرع زهور المحبة في الأماكن التي أتردد إليها .

أجل كنت أحبه بعنف وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أقبل أن يقتحم عزلتي .. ها هي الحياة تعلمني كأم رحيمة .. وأفهم أن رؤية الشمس أجدى من ظلام القبر حتى بالنسبة لمن فقد الأمل .

واصلنا الكفاح معا .. الصدق معا .. وكثرت لدينا النقود ، أصبحت تهطل علينا كأمطار الشتاء الغزيرة .. وأحاول أن أقنع شيركو بالتخلص المباشر من هذه النقود لأنها الوحيدة التي بمقدورها أن تباعد بيننا إن كثرت .. فصرنا نمضي الليالي في خيام (الحجيات) ونستأجر سيارة تأخذنا

وتعيدنا .. نأخذ معنا كميات هائلة من الطعام والمشروبات ولا نصحو إلا ظهرا في الخيام فنعود نعمل يومين ونلجأ إلى الخيم .

لقد بنينا علاقات عميقة مع نساء جميلات .. دون أن يُضحك علينا .. أعني كنا ندرك أنهن يضحكن علينا ويسلبننا نقودنا .. ولكنها كانت الطريقة الوحيدة المحببة للتخلص من رعب ما يمكن أن تخلفه تلك النقود إن بقيت لدينا .

اشترينا عربة دفش نبيع الخضار والفاكهة في الأحياء الشعبية وأحيانا في سوق الخضار .

يوم الجمعة الذي نستريح فيه فقت ولم أجد شيركو .. عند الظهر خرجت وعدت نحو العشاء ، ولم يكن شيركو في البيت .

قلقت على غيابه المفاجئ .. لم أنم حتى الرابعة صباحا ، وعند ذاك خرجت واتجهت إلى السوق .. كانت العربة مقفولة في مكانها ، ولم أر أي أثر له !! :

هل فقدت شيركو فجأة ولن أجده ، مثلا هل غرق في النهر وانتهى كل شيء ، هل كان يكذب فظهر أهله وأخذوه ، هل هو موقوف في مخفر ، مريض في مشفى ؟!

هذه الأسئلة تراودني وأنا أقف بجانب عربتنا المربوطة بالزناجير .

سّلم عليّ عتال طفل وكانت إجابتي :

هل رأيت شيركو ؟

أجاب : رأيته في المراحيض قبل عشر دقائق .

وهرعت صوب مراحيض سوق الخضار .. رأيته يجلس بجانب حائط المراحيض : هه شيركو.. ؟!

ولم يجب .

- أين نمت ؟

أشار بيده إلى المكان الذي يجلس فيه .

- هل زعلت مني .. أنا لا أعرف شيئا .. لا أذكر شيئا .

نظر إلي وأجاب : لست أنت ،، لكنه بشير ..

وصفعته بقوة ، ركلته مثل كرة ، وجرجرته إلى الغرفة : أنت نجس ، أنا أحتقرك الآن ،، أتسمع ؟

ياإلهي .. لماذا كلما أظفر بشيء جميل يتلوث بسرعة ؟
جلس شيركو في الزاوية دون أن يتكلم ولم يعد يحسسني بالطهر لقد ذابت القداسة من وجهه وحل الشر ، وأنا أنظر إليه يتجرد من قداسته مع كل نظرة ، لقد بال بشير على هذه القداسة ولوثها .

هكذا أيها الكون المنقلب وما زالت السماء تمطر والمساجد تدعو الناس إلى العبادات والأصوات تملأ الدنيا . الثياب البيضاء والمسابح الطويلة ، والصلوات ، من يسمعكم ويراكم يقول : هذا هو الشعب الذي كان عمر الكون كله تمهيدا لظهوره ، هذه نتيجة البشرية في السنة الأخيرة في القرن الأخير ، تفوح منه رائحة الجنة ، حتى شيركو الوحيد لوثوه .
أي شيء أنتظر .. هل أعيد النظر في مبادئي ، هل أمزق الذاكرة لقد فقدت الصواب .. أأواصل من أجل قضية إعادة جسدي أم أتحول إلى مصلح اجتماعي .. أم أبحث عن زوجة .. أم أبحث بيت .. أم عن صديق .. عن أخوة .. عن أب .. عن أم .. أشعر بضياع يسيطر عليّ . هذه هي الحياة التي علينا أن نتذكرها ولا ننساها .
تناولت قنينة الويسكي ، رشفت نصفها وقلت له خذ اشرب ولأول مرة لم يشرب ،، قلت : منذ متى وأنت تخرج مع بشير ؟؟
رفع رأسه وقال : أقسم لك بأنها المرة الأولى لقد خدعني .

- أي شيء ينقصك يا سافل أتريد الـ .... لماذا لم تقل لي .
- لو كنت مكاني لعذرتني ، أنا أصارحك حتى لا تكون مخدوعا بي ، وعدني حمزة عند الساعة الرابعة وقال لي بأنه تواعد مع عاهرة وذهبنا إلى الخابور ، هناك ظهر بشير وأخرج خنجره وهددني بالذبح إن لم استجب له ، وقال بأنه ينتظر هذه الفرصة منذ عامين ، وأنه يخطط لك أيضا .
- هل أوجعك ؟؟
- قليلا ..

بدأ المشروب يمنح مفعوله والرائحة تذكر بالولادة وأشياء كانت نائمة ، دنوت من المدفأة ، أضفت المازوت والتهبت النيران ،،،، صوت شهي ،،، مطر وموسيقى ونار دفء وصقيع ،،، وعي وسكر ،،،
صوت المطر خلف الباب ،، النار في جسد المدفأة ،، الدفء في الأجواء ، الصقيع في الأعماق ، الرأس تدور ، والأعضاء كلها ترتجف .
يتحول شيركو في لحظات إلى أنثى شهية ، إلى أشهى من أي أنثى في العالم .
أنهض وأحس بقنبلة موقوتة في داخلي لأول مرة ، يوقظها شيركو ، يشعل فتيلها برأس سيكارته الجميلة ، ويملأ كل أعضائي شهوة .
في الصباح أفقت ، ولم أر شيركو ، لا أذكر تفاصيل ما حدث . يبدو لي أنني كنت في حلم ، كنت مستلقيا على فراش شيركو وقد غطاني بلحافه .
حاولت أن أستعيد أي حركة من ليلة البارحة ، واصلت الاسترخاء وتخيلته للحظات ثم نهضت واتجهت إلى السوق رأيته بجانب العربة يبيع الفجل .
وقفت بجانبه وخجلت لأول مرة أن أنظر في عينيه ،،،
وبدا هو الآخر يحدثني بخجل ودون أن يرفع نظرة إلي .

عند الساعة العاشرة قلت له : ادفع العربة لنذهب إلى الحارات .
وتجولنا في الحارات أنفقنا الفجل في الساعة الرابعة مساء ولدى عودتي إلى البيت أحسستُ بأن علاقتنا تأخذ مسارا جديدا ، حتى في القيام بأمور البيت بدا شيركو يتصرف كأنثى ويحسسني بأنه سعيد بذلك وأحيانا يقول لي يجب ألا تفكر بالزواج للحظة واحدة .
هاهي الحياة مرة أخرى تتحطم يا إلهي أي حمق ارتكبت ؟؟؟؟ أي باب فتحه لي بشير،، هاهو يفتح لي بابا أخاف أن يقضي على ما تبقى في ... أغيب أحيانا عن البيت لكنني لا ألبث أحن إلى شيركو وأحيانا قبل الظهر نترك العمل ونعود إلى البيت .. في مفهوم الجسد تضيع الأحلام ..
لقد خسرت الكثير وخسر شيركو معي الكثير، ولكن إلى متى سنبذل كل هذه الطاقات في هزائمنا المميتة هذه أين مستقبلنا ، الحياة الرائعة .. النزيهة التي نناشدها .. لم أكن أعلم أن علاقتي بشيركو ستولد في أعماقي جرحا سيبقى ينزف طوال عمري .. هكذا بمقدور جرح واحد أن يستنزف دم القلب كله .. دم العمر كله .. ولكنني ما أزال طفلا .. أخطاء الطفولة تعلمني .. بعد سنة أصبح كل شيء يتغير .. وصار وجود شيركو يحسسني بالاشمئزاز . أردت الخروج من عالمه .. من رائحته .. من ديكوره .. من كل شيء يخصه .. وصرت أتصرف معه ببرود ولكنه يبكي لأي إلماح بالفراق ،، يقول بأنه لن يتخيل حياة أخرى إذا افترقنا .. وأقول أنها أوهام ،، وكل شيء يتبدل بمجرد الخروج من واقع والانخراط بواقع آخر ،، سنة كاملة من التردد .. والتشجيع .. والخوف من الفراق .. من تصور الحنين .. سنة من الاستقرار المهلك لكنه الذي اتخذ القرار .. لكنه الذي اختفى دون أي موعد .. دون أن يخبرني بما ينوي عمله .. في الصباح أفقت لم أره .. لست أدري في أي وقت نمت .. كنت مستلقيا على فراشه . وقد غطاني بلحافين لحافي ولحافه . وأطفأ الضوء وأشعل

النواصة .. وأغلق الباب عليّ جيدا نهضت وأحسست بغصة في حلقي ..
كتب شيركو إلي :
" أرجوك اهتم بصحتك لن نلتقي مرة أخرى .. سأترك المدينة الآن لا تبحث عني " .
لقد اختفت زهرة الدار من الدار وهجرته إلى الأبد وشعرت بدودة صغيرة تنهش دماغي .. ذهبت إلى الطبيب .. أجل ونسيت المرض الرئيسي نسيته تماما .. تلك الأمراض الاستثنائية كم بمقدورها أن تنسينا المرض الأساسي .. كم بمقدورها أن تشغلنا بها ونحن نعرف حتى لو زالت فإنها بداية الشفاء ورغم ذلك نحاول ونخدع أنفسنا ، قال الطبيب : ثق بي وقل لي كل شيء
قلت : أشعر بأنني سأنسحب بكاملي من رأسي ..
أنا مرتعب ... وأحس بانهيار كل شيء .

- بأي شيء تشرد ..؟
- لا شيء .
- لماذا أنت قلق .. أعني لأجل من ؟

ماذا أقول .. أأقول قضيتي ؟ .. أأطرحها .. لا ،، سيتهمني بالجنون . لقد جئت من أجل الدودة التي تتحرك في صدغي .

- كم ساعة تنام ؟
- لا أدري ..
- يجب أن تيقن بأنني من نظرة واحدة أستطيع أن أفككك وأشرحك وأحللك هذه إحدى سمات أطباء النفس ،،
- أتعرف الآن ما أعانيه ؟
- أجل .
- وأنت ساكت ،، لا .. لا أيقن ..

حالتي أصعب من أن يعالجها واحد مثلك .
- ألا تثق بخبرتي كطبيب مختص قضى عمره في دراسة النفس ؟
- أنا أسف ..
وعدت إلى الشرود .. إنه يكذب .. يود أن يلصق بي المزيد من الأمراض .. من الأفضل أن أكتفي بالذي جئت من أجله قلت لك يا سيدي أشعر بدوار في رأسي وثقل في قلبي .. وخلل في الجاذبية .. ماذا بعد ؟
قال بضبط نفس : اطمئن .. لا تفكر .. نم باكرا وتناول الأسماك والخضروات والفاكهة بكثرة سأعطيك علبة أقراص استعملها قبل أن تنام وكلما أحسست باضطراب وتوتر . وأعطاني الطبيب دواء غدار رفيقي إلى الآن لأنني أدمنته ولأنه حقا يساعدني على التخلص من التوتر والتفكير إذا ما تناولت قرصين معا " ديازيبام " لجميع الحالات المرضية المترافقة بالعوارض التالية : التوتر النفسي - الخوف - القلق- الاضطرابات - النهك العصبي – القلق النفسي - العصاب الوسواسي – الكبت المترافق بالهيجان ، الاضطرابات البدنية ذات المنشأ النفسي – اضطراب النوم ..
ينصح المرضى الذين يعالجون به بعدم تناول المشروبات الروحية الكحولية .. يحذر المرضى من قيادة محرك ما .. سيارة .. دراجة .. كما يجب عليهم الانتباه الشديد أثناء تجولهم في الشوارع نظرا لتأثيره على مدى رد الفعل العصبي . ازدياد الجرعة يسبب الإدمان "
أين أتجه الآن ؟ ضجرت الفرشة والتفكير .. أحس بأنني أركض طوال الوقت لا أتوقف عن الركض .. فقط أريد لحظة واحدة أحس فيها بالاستقلال . لا فرق بين أن أكون حيا وحيدا أو ميتا ، كلاهما وحدة .. كلاهما عزلة ..

لدي رغبة في ترك الفرشة ولديها رغبة في ترك جسدي أأزور ليزا ..؟
لا.. لا ستكون غارقة في العمل فأحس من جديد بسذاجة من لا يعمل سيعتريني ذاك الشعور بالتطفل لا شيء يوقظ الإحساس بتحقير الذات لدى العاطلين عن العمل كمشهد عامل غارق حتى رأسه في بحر العمل .
كم تبدين جليلة يا ليزا وأنت تعملين بمهارة ولا أملك إلا أن أنظر إليك بتقدير . سأمر بجانب عيادة " كليستان " قد تكون فارغة فأجلس هناك .. حتى هي تبدو غامضة أحيانا وتمارس علي نوعا من السخرية العفوية .. سأجلس في العيادة وسيمد الطبيب برأسه عن غرفة الكشف ستتجه إلي كليستان بالقول : أنت يا أخ .. أتنتظر أحدا ؟ .. أأنت مريض .. سنغلق العيادة الآن .
وعندما يعيد الطبيب رأسه تقول بخفوت : أنا آسفة لقد مازحتك .. لا تهتم .. الطبيب لا يفكر بغير المرضى ويمقت الأصحاء . ثم يدخل المرضى نساء ورجالا فتتحدث معي وتغمزهم .. وتواصل هذه الحركات التي أمقتها فتوحي إليهم جميعا بأنني ساذج ونصف مجنون وبانصرافهم تعود إلى الحديث معي بلهجة توحي إلي بأنني أستاذها في محاولة مباشرة للاعتذار عن تصرفها السابق . لقد حاولت أن أتعرف للأسباب التي خلف شخصيتها القلقة منذ لقائي الأول بها في الموقف حينما أعطتني حقيبتها الكتفية لأحجز بها مقعدا وعندما رأيتها للمرة الثانية دنت إلي وقالت : ألست .. ولم تكمل . ولما طال انتظاري لما ستقول ؟ أردفت .. أقصد الذي ناولته الحقيبة ؟.
قلت : أنا .
قالت : سأعطيك هدية لو أعدت لي الحقيبة .
قلت : لم أقم بعمل أستحق معه منح هدية .
- هل ستردها إليّ ؟

- ولماذا لا أردها .
- متى ؟
- غدا .
- أين هي ؟
- في البيت .

فرمل " سربيس " وصعدنا . جلست كليستان بجانبي في مقعد محجوز وقبيل الموقف الذي سأنزل فيه نزلت وهي تكرر قولها : غدا لا تنس وسأعطيك مكافأة .

لم أنسى فقد أعدت إليها الحقيبة في اليوم التالي ولم أرى تلك المرأة حتى في الموقف

خلال شهرين متواصلين وبعد ذلك الوقت فوجئت بها تطرق بابي قبيل العشاء قالت وهي على الباب :

ماذا تفعل ؟

لو لم تكن أمام بابي لطردتها حتى لو كانت أمي لسذاجة سؤالها .

- ماذا تريدين .. ألست كليستان ؟ لقد أعدت إليك الحقيبة . وانتهى كل شيء .

كانت ترتجف ادرجة أني سمعت اصطكاك أسنانها .. ولمحت طيفا خلفها في الظلام .

- من معك .. ؟

وعدت إلى ضبط نفسي : آسف .. أقصد تفضلي لا أحد هنا . أعني لقد فوجئت بوجودك .. كيف عرفت بيتي . نظرت إلي نظرة فارغة من المعنى وقالت : تعالي يا ليزا تفضلي يا حبيبتي . ودخلت فتاة غيداء شعرها كستنائي مجمر بأناقة وعينين زرقاوين على وجه برونزي .. ترتدي تنورة خضراء فاقعة وكنزة كحلية مقصبة .. كانت متأنفة ومبلجة

الوجه ونشيطة ومتناسقة الجسد كلاعبة جمباز وبدخولها عبقت الغرفة بأريج عطر منعش كذاك الذي يصدر أحيانا من فتيات أنيقات جميلات عندما نمر بجانبهن مصادفة في الطرقات العامة . جلستا على سريري تتبادلان النظرات .

قالت كليستان : نود البقاء هنا الليلة

قلت : لا أطردكما .

قالت : وأنت ؟

أدركت ما رمت إليه وخرجت من الغرفة على الفور أمضيت الليلة في فرشة تنكة بجانبه ..

ولما نهض قال : من .. من .. في فرشتي ؟؟؟

قلت : أنا .. أنا ..

قال : كيف دخلت ؟

قلت : وجدت الباب مفتوحا فدخلت الغرفة والفرشة .

وتعمدت أن أتأخر حتى التاسعة صباحا وبعودتي إلى الغرفة لم أر أحدا وجدت ورقة نقدية بيضاء على مخدتي تتصدرها كلمة \ أختك \ بخط أحمر حماتها وفكرت في أن أذهب إلى كليستان وأوبخها لكنني عرفت أن اليوم جمعة عطلة العيادة الإسبوعية . حملت الورقة : حقا أنا بحاجة إليها .. سأعيد بها أيام العز ولو ليوم واحد " آه يا شيركو .. حتى الخير راح معك وصارت هالة تسرق السجائر لي من علبة دخان زوجها .

وها هي كليستان تدخل حياتي وتقدم إليّ عربون دخولها .. وليزا يا شيركو .. كم كانت جميلة .. كما كان بودي أن تكون معي .. لقد سئمت كل شيء من بعدك .. أبحث عن امرأة تملأ فراغي فلا أجد غير العاهرات .. لقد ضجرت الجنس والعرق والنوم حتى العربة بعتها .. أتسامحني لأنني لن أعمل عليها بمفردي . لأنها رائحة منك .. لقد

تخلصت منها ولن أعمل يا شيركو .. لمن أعمل .. ومن أجل أي شيء .. من الحمق أن أعمل .. صرت أخجل من النزول إلى السوق لا أريد أن يراني أحد بدونك ... ياه كيف كنت في ذاك النشاط عندما كنا .. لا أصدق أنني كنت ذاك الشقي .

ذهبت إلى السوق .. ابتعت علبة شامبو ومعجون حلاقة وعطرها .. واشتريت نصف كيلو لحمة .. كيلو بندورة .. ثلاث خسات .. ثوما .. ليمونا .. تفاحا .. ولترا من العرق \ الريان \ الذي تدمنه هالة والموالح وما بقي اشتريت به الدخان وركبت دراجة لتعيدني إلى البيت مفلسا .

أعددت اللحمة والبندورة في المقلاة .. رششتها بالكزبرة والفليفلة . قذفت في المقلاة بعض الثوم ووضعتها على نار خافتة حتى فاحت رائحة اللحمة .. أطفأت النار وسكبت على الوجبة زيت زيتون .. عصرت ليمونة .. ورفعت المقلاة من أذنيها بخرقة .. وضعتها على الجريدة بجانب الخس والتفاح والعنب .

سخنت رغفين من الخبز على الغاز وبدأت ألتهم بشهية تناولت قنينة العرق .. شغلت المسجلة بموسيقى هادئة وغرقت في عالم " ألف ليلة وليلة " في هذه العبارات الجميلة .. هذا الوصف الدقيق .. إنها تفتح شهيته لسماع المزيد .. تجعله يمارس الجنس مع صوتها ووصفها .. فيمقت الجسد .. يستمتع بممارسة الجنس مع الصوت مثلما لم يستمتع به مع أي امرأة " ولها صدر كجادة الفجاج فيه ثديان كأنهما حقان من عاج ، وبطن لطيف الكشح كالزهر الغض قد انقطعت وانطوى بعضها على بعض وفخذان ملتفان كأنهما من الدار عمودان ، وأرداف تموج كأنهما بحر من بللور أو جبال من نور " أي جسد بمقدوره أن يقدم لشهريار هذه التفاصيل سوى جسد صوت شهرزاد .

أجرع السائل .. يلسع حنجرتي .. حتى العرق لم يعد عرقا .. أتقيأ كل ما تناولته .. لا بد أن أخرج .. حتى وإن كان إلى الجحيم .. ما جدوى القراءة وأنا أعيش متطفلا على الآخرين ما جدوى أن أقرأ على حساب جهود الآخرين .. النساء يعطفن علي .. ويعملن .. شيركو يعمل ليل نهار في غربته ويرسل لي نقودا .. كليستان تعطيني .. هالة تعطيني .. ليزا تعطيني .. وأنا لا أعطي أحدا .. لا بد أن أعطي ... ولكن كيف والحرب تحيط بي التاريخ ليس إلا سلسلة جرائم ضد الجنس البشري .. كلهم طغاة .. على رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفي . ما شأني .. لست نبيا .. لست مسؤولا لأوقف السلسة .. رأسي يكاد ينفجر .. يا إلهي أين الديازيبام .. أيها الطبيب المجنون وحدك تعرف لماذا صنعوا كل هذه الأقراص .

هل أذهب إلى عبد الجبار ؟ .. عبد الجبار حمار يكبرني بعقد سيقول كعادته : أنت جاهل .. حيوان .. متخلف .. لاتفقه شيئا وجودك كعدم وجودك .. لا تاريخ لك .

وسيتحدث في السياسة والأحزاب والثورات .. أنت مشرد .. مجرد ماسح أحذية ومتسول مريض .

أنا أعرف كل شيء .. تعلم مني .. تعال إلي سأدخلك إلى الوسط السياسي .. سأجعل لك وجودا من العدم . سأرسلك لتناضل من أجل وجودك ،، النضال هو الخلود من لا ينتمي إلى تنظيم أفضل له ينتحر لا وزن له وعندما يموت لا يمشي في جنازته أكثر من شخصين . وكالعادة يا عبد الجبار سأخرج مجنونا .. سأفقد حتى اللحظة .. وقد أفقد ثقتي ببروين .. لن أذهب إليه ولو مات الجميع إلا هو لا يجيد الحديث في غير السياسة .

أين أذهب ..؟ .. إذا ذهبت إلى دكان خليل سأرى حوله مجموعة من الشباب ويغرز أفكاره في رؤوسهم : يا شباب من لا مال لديه هذا الوقت

لا قيمة له .. يجب أن نظفر بالمال لنستطيع أن تعايش الواقع : إن لم يكن لدينا – وينظر إليّ – تعال اجلس – المال لا أحد يحترمنا .. لا أحد يعترف بوجودنا .. الإنسان موجود بمقدار ما يملك من اقتصاد ومفقود بمقدار ما يفقده .. نحن الشباب لا نستطيع أن نتخذ القرارات ونتمرد على الآباء قبل أن نتحرر اقتصاديا .. التحرر الاقتصادي يؤهل حتى الضرير لاتخاذ القرار ، ولن ينتهي حديثه .. وسأنسحب متشائما .. يماذا لا أزور زارا سنتحدث دون صوت .. نسب الآخرين .. ونخرج .. نأخذ قنينة عرق ونستمتع بها على حافة الخابور . أيضا لا .. والده سيفتح الباب ولن يدعه يخرج معي لأنه ما خرج مرة معي إلا وعاد إلى البيت سكرانا . وقد فاتته صلاة ذاك اليوم .. سيجلس والده معنا هذا إن أدخلني وسيلقي محاضرة .

من لا يصلي فاجر .. الصلاة عماد الدين .. كل شيء يزول إلا العمل الصالح . الهدف من وجودنا العبادة .. " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " .

لماذا نهرب من هذا الهدف ونجعل لأنفسنا أهدافا دنيوية زائلة . يجب أن تكون كل أعمالنا عبادة – حركاتنا ،، لفتاتنا - أنفسنا – نظراتنا – كل شيء يجب أن يكون في خدمة العبادة والصلاة أولا . لا شيء ينفعكم غير الصلاة يقول الرسول : " إن بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة " . العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ،، فمن تركها فقد كفر " .. " استقيموا ،، ولن تحصوا ، واعملوا ، وخير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مسلم " لايكفي أن تكون طيبا لتدخل الجنة ، الطيب من يصنع الطيب والصلاة أطيب الطيبات .. تارك الصلاة لا يدفن في قبور المسلمين ، لكن أزمة الدفن تجعلنا نغض النظر لأن الدين يريد اليسر في جميع الأحوال : الصلاة .. الصلاة .. إذا رأيت كلبا عطشانا اسق

الكلب قبل تارك الصلاة وسيجزيك الله خيرا .. أحتار في أمركم تطيعون شرطيا وتعصون الله الذي خلقكم وخلق الشرطي .

لن أذهب إليه أيضا .. ولن أخرج من الغرفة .
هذا أفضل حل للهرب من جميع هؤلاء ، حتى زارا سيتردد من الخروج معي عند ذاك .
أمد يدي إلى كتاب وأبدأ في القراءة :
" آه ، إنني أعرف كيف يشعر الطير السجين في القفص حيث تشرق الشمس على سفوح المرتفعات ، حين تتحرك الريح لطيفة عبر العشب المتفجر ،،
ويتدفق النهر .. كأنه جدول من زجاج حين يغني أول طير .. وينفتح أول برعم ويتسلل من كأسه العطر الخافت .
أعرف كيف يشعر الطير في القفص " .
لم أعد أملك سوى عينـَي لأقرأ بهما .

الإخفاق الرابع

هي امرأة كبرى واحدة تلخص كل نساء الكون ، بروين المذهلة التي لا أستطيع أن أقلد الملايين وأكون مثل أي رجل في هذا العالم لأتقدم وأطلبها .. لا أنا ، ولا هي نجرؤ على ارتكاب هذه الكارثة العظمى بحق أغمض علاقة جمعت بين كائنين ..بروين حتى خطي يحلو عندما أكتب اسمها .

وأنا أناديها أشعر أن صوتي يحلو أو ثمة نبرات تضاف وأخرى تحذف من مساحة الصوت .
ولا أسعى لإيجاد الكلمة المضبوطة التي تفسر هذه العلاقة ، وأي محاولة للتفسير بالكلمات ستفقدها لحظاتها السحرية التي تملأ العالم ولا تنتهي كالنجوم .
هناك تفاصيل هامة مثل وجود امرأة قادرة على تفجير أعنف طاقة تجاهها .. هذه قضية هامة بالنسبة لي .. هذا الوجود يعني أن الشر لم يسيطر على العالم كله .
بالنسبة لي ، الذي كان ويكون هو بروين .. وأعترف بعجزي في وصف تفاصيل هذه المرأة العذبة التي تضيء .. إنها امرأة تضيء .. تشرق مثل الشمس .. أشكو لها بصمت ودون أن تسمعني عندما تكون بعيدة ما لا أستطيع أن أشكوه عندما تكون يدي في يدها . وأعرف أن مثل هذه المرأة تأتي مرة واحدة كل عشرة آلاف سنة .. تظهر بغتة .. تحيي حواسا جديدة تملؤها بالملح والحمض والدم والنبض .. مثل هذه المرأة تعلمني كيف أحترم نفسي .. تعلمني كيف أكون صاحب قضية ولا أكون هامشيا .. تعرف كيف تبنيني .. كيف تحدد مفهومي للحياة والمجتمع والله . هي مستقبلي .. لا أساوي شيئا بدونها .. هي كنزي .. هي تاريخي . بروين هي الخلاص .. هي الخلاص .. هي المستقبل . اهتمامي ببروين يفوق اهتمامي بأي شيء آخر .. أجمل وأسخى شمس أشرقت على أيام الأرض تلك التي أشرقت على بروين .. بروين هي الملاذ .. هي الملجأ .. المرأة الصقيع .. المرأة التي تنتشلني من ذاتي وتطهرني من نجاستي .. بروين هي المياه التي تطفئ كل النيران وتشعل نيرانا هادئة وجميلة في ليل شتائي مثلج .
لأن اليوم موعدنا غسلت وجهي مرتين

لأن اليوم موعدنا حلقت ذقني مرتين
لأن اليوم موعدنا ارتديت ثيابي مرتين
لأن اليوم موعدنا وضعت العطر مرتين
لأن اليوم موعدنا أشرقت الشمس مرتين

بروين .. أي وجه ستقع عليه نظراتك البريئة .. أي كف ملوثة ستقع في كفك . سأجيء أيتها المعبودة وإن لم تريني . اعلمي أنني جئت ولم أشأ أن ألوثك بالنظر إلي . جئت وكنت واقفة في مكانك بشموخ .. وأنا أختلس النظر منك كالأيام السابقة .. جئت ولم أدعك تريني .. وعندما صعدت .. الحافلة أحسست أن العالم كله صعد ... بعد ساعتين من الانتظار ..

بروين اعذريني على ثقل دمي .. وأنت تصعدين دنوت من مكانك الفارغ وقلبي يرتعش .. هذه وطأة أقدام حبيبتي .

هذا الجدار أسند كتف حبيبتي
هذا الرصيف سارت عليه حبيبتي
هذه الحافلة حملت حبيبتي
وهذه الإعلانات الثابتة قرأتها عينا حبيبتي
وكل شيء حبيبتي حبيبتي حبيبتي

أي اثم ارتكبت، حتى قادتك الأقدار إلي .. ألم يكن ثمة من هو جدير بك ، أنا الذي لا يملك شيئا .. حزين عليك يا جليلة . حزين على مصيرك .. أنا الذي لن أقدم لك غير الحزن .. أي إثم ارتكبت يا بروين كي يرتبط مصيرك بمصير شخص محطم .

صبيحة الجمعة الحزينة وعذراوات المسيح المباركات يحتفلن تحت قباب الكنائس بثياب الحداد العيدية ، امتدت يد مقدسة إلى بابي .. هبطت قديسة من السماء السابعة إلى غرفتي ، ارتبكت .. جفلت .. فزعت ..

قالت نظراتي : عندما ألمحك نجاسة العالم تسري في عروقي .

أجابت نظراتها : دونك أشعر بموت وعندما أراك تزيدني موتا .. تزيدني اشتعالا .
قالت نظراتي : لا تنظري إلي هكذا .. نجس أنا لم يعد قلبي يحتمل كل هذه القسوة سيغمى عليه .
نظراتها : لأنك محاط بكل تلك النجاسة بعنفوان إثمها ستحافظ على طهارتي .
نظراتي : لماذا تجيئين وأنا أبتعد عنك بموت ؟
نظراتها : لأنني واثقة من نجاستك .. عظمة النجاسة ستمنعك من تدنيسي .. ستمنعك من القبلة المحض . وأنت في كل هذا التردد الجليل أحلم أن يعتم الكون وألقي برأسي في حضنك وفي غمرة الإتمام سأحس بحيوان صلب ينهض من أعلى ساقيك .. أمد إليه يدي أقطفه .. وأقذف به من النافذة إلى حيث تقوى يدي .

- الآن فقط سأصدق بأن لحظات خاطفة من هامش الزمن المهترئ تعوض عن عمرنا بأكمله من الاخفاقات .
- الآن بروينتي سأتشبث بكل لحظة من لحظات الوجود كبخيل يهودي هرم .. لن أدعها تمر دون النظر في وجهك .. بروينى يا بروين لأظل رائحة منك .
- بروين .. أتحبين الأغنيات .. ألديك مكتبة موسيقية .. أتقرأين الروايات والقصص والأشعار وصحف العواصم أم تفضلين النوم على كل شيء وتقبع بكل بروينتها في ركن خالد .. أجل .. بروين بأكملها تجلس الجلسة البروينية . بروين بكل حضورها تطرب الجدران والستائر والسرير .. والثياب والسقف ..
- - لماذا تعملين يا بروين ؟..
- من أجل المستقبل .

- كوني لي .. لي وحدي .. بروينتي هل ستكونين لي وحدي .
- لك .
- كلك
- كلي
- والمياه .. الزهور .. اللآليء .. الشلالات ..
- بمجملي .
- لا أصدق .
- صدق يا سيد . لقد جرجرتني إلى غرفتك أيها العنيد . أنهض تتزحلق غصة هائلة إلى حنجرتي . تلك الغصة تبنيني كثيرا .. تشعلني كثيرا .. تطفئني كثيرا .. ولم أعد قادرا على قول كلمة واحدة .. كل شيء غدا أوسع من حجمه المألوف . أترك الغرفة .. إلى العتبة أتأمل السماء تبدو مرتفعة لن تطالها الأيادي ، سأقطف لك القمر .. نبرة تدغدغ سمعي . التفت إنه صوتها الملون ولا أملك إلا الصمت أيتها المليكة . سنترك كل شيء \ بروينة \ ألديك متسع من لحظات . لا أصدق بأن ثمة امرأة على وجه الأرض تجيد فن المشي بهذه السجية غيرك .

بروين إلى جانبي كتلة متوهجة من الحياة تمشي ببروينية منتظمة .. تمشي المشية البروينية . نجوب الشوارع شارعا شارعا .. الحدائق حديقة حديقة .. ويتحول المشي مع بروين إلى نوع من التحدي ..
سأتباهى بك .. سأرفع رأسي بك .
أيها الرب الرحيم احم لي بروين ..
كفى يل بروين سأنسى كل شيء من أجلك .
من أين هطلت أمطارك الغزيرة على ثيابي .
انظري إلى الساحات .. تتألق بأمطارك

إلى الورود تتفتح لأنظارك والناس .. الناس سيجنون .. يمويون .. يقعون في الحفر .. يتصادمون .. وهم ينظرون إليك .. لقد فقدت المدينة صوابها ووقع الجنود في الاستنفار .

" أماه .. وهذه الدموع المالحة من أين تجيء " .

كل عشاق العالم يتجمهرون في الحديقة يقفون دقيقة نظر إجلالا وتعظيما لحضورك .

هذه خجي العنيدة تصعد الشجرة وتصر على الالتحاق بسيامند إلى آخر السماء .. وتلك زيني الخالدة تهدي خاتمها الجميل إلى ممو وتطبع على جبهته قبلتها التي لا تمحو أبدا .

بروين .. أي شيء تأكلين .. كلي الصحون والموائد والأشجار .. ما رأيك أن تأكلي كليتي ؟؟ ... كلي يا بروين قلبي .. وكليتي .. وكبدي .. وأنت تأكلين سأنظر إلى ثغرك الصغير .. سأنظر .. وأنظر .. وأنظر .. ثمة ما يعوض النفس عن كل هذا الألم .

يتحول الموت إلى شبح .. وأنا معك أغدو أعظم جبان من الموت . أغدو أنانيا في تمسكي بالحياة .. خوفي من الموت وتمسكي بالحياة على مقدار تعلقي بك . بروين .. الحقيقة الوحيدة تكمن في وجودك ومع غيابك تختفي كل الحقائق .

محظوظ ذاك الذي يجد المرأة التي ينفق كل عمره في حبها . أنا واثق يا بروين بأن في من الشباب ما يبعد احتمال أي موت .. ولن أموت ما دمت أحبك . كل هذا الحب .. ولن أصاب بالمرض الذي يمهد غالبا للموت ما دامت أنظاري تقع على وجهك كل صباح .

أيها الرب " إذا كانت هذه هي الحياة أعدها مرة أخرى " .

الإخفاق الخامس

" لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها "
حديث

لأول مرة منذ خمسة عشرة عاما رأيتني .. ها أنا أمشي في الشارع .. مشيتي .. وجهي .. شعري .. طولي ولست أدري إذا كان الصوت صوتي ، أنذا بكاملي .. بنظراتي .. بلون عيني .. جريت خلفي .. راقبتني بحذر .. أين كنت طوال هذه المدة .. لا يهم .. المهم لقد رأيت جسدي .. ولكن ما العمل .. ماذا سأقول لي .. ؟ كالظل أمشي خلفي . وأفكر .. أفكر .. هل أصرخ وأقول : هذا جسدي أعيدوه إليّ ؟ لا .. سأخذه إلى أهلي في القرية .. وهناك سيعترفون بي عندما يرون الجسد .. إنه جسد ابنهم .. لا .. لا .. قد يتمسكون به ويتخلون عني .. أي شيء سأفعل ؟ .. لأي شيء سأصيحه لكن سأواجهه بالحقيقة لأرى جوابه .. قد يكون بريئا .. قد يبحث عني هو الآخر .

وقفت قبالته ودنوت وما إن رآني حتى هجم علي وأمسك بكتفي وقال : ها قد رأيتني .. أين كنت .. ؟ .. منذ خمسة عشرة سنة وأنا أبحث عني .. وبدأ يجرجرني قائلا .. أعطني جسدي .

قلت : أنت من يعطيني جسدي .

قال : هل هذا جسدك ؟

قلت : أجل جسدي .. وأنت أهذا جسدك ؟

قال : فقدته منذ خمسة عشر سنة .

وذهبنا إلى الغرفة .. سعدت برؤية جسدي ولكن كيف سأرتديه كيف سأخلع جسده ؟

قال : ماذا فعلت بجسدي هزل كثيرا .

قلت : شكرا لعنايتك بجسدي .. قال : هل انكسر فيه شيء .. هل ضربه أحد ؟

قلت : أجريت في خاصرته عملية جراحية طعنه رجل بخنجر

قال : من الذي ضربه .. أرني إياه

قلت : لا أعرفه .. وأنت أصاب جسدي شيء ؟
قال : لا .. لقد اهتمت به وصرفت عليه جميع نقودي .. أخرجت سيجارة وضعتها في فمي وقبل أن أشعلها مد يده إليها وقذفها قائلا : لا تدخن .. إنه يضر بصحتي . أأنت مدمن .. آثار المرض تبدو عليه .. لماذا لا تأخذه إلى الطبيب .
قلت : عليك احترام عباراتك .. أنا لست .. أنا أمر بظروف قاسية .. وأعاني من حساسية مفرطة وهي التي تؤثر على صحتك .. هذا كل شيء .. أنت قد لا تعاني هذه الحساسية ..
قال : أوصيك بجسدي إلى أن نتصرف .. لا تدخن
أرجوك لا تمارس الجنس بفوضوية .. اهتم به .. البسه ثيابا جديدة لنذهب الآن سأشتري له كل شيء . دعه ينم في مكان مريح .. أين سريره .. لماذا لا تغسل فرشته ..
قلت : يجب أن تعيد إليّ جسدي بأي طريقة كانت
قال : ولكن كيف ؟
قلت : هل حدث معك ما حدث معي ؟
قال : أحك ماذا حدث ليلة فقدان الجسد ؟

- كنت نائما إلى جانب أخي ولات وبرغم نومي الثقيل رأيت الباب ينفتح بعد منتصف الليل .. ودخلت منه قامة نصفها العلوي مرئي والنصف السفلي لا مرئي .. دنت إلي وأنا مستلق فككت جسدي وظللت بلا جسد وكنت متأكدا من وجودي مثل أي مخلوق لا مرئي .. كل شيء حولي لبث على حاله لم يطرأ أي تغيير .. رأيت ولات ويلدز وباهوز في أماكنهم .. كنت في الفرشة ولكن بدون جسد .. ولم أستطع النهوض .. لقد أخذت القامة جسدي وخرجت من الباب وتركته مفتوحا .. أردت الجري خلفها ولم أستطع .. انتظرت في قلق .. وأنا

أرتعب .. وبعد نحو ساعة عادت القامة من الباب وتحمل جسدا آخر غير جسدي .. هذا الذي يتلبسني الآن الذي تقول بأنه لك .. أجل هو وبدأت تركب عليه حواسي . حاسة حاسة .. ابتداء من حاسة اللمس إلى حاسة النظر .. وانصرفت من الباب نفسه وأغلقته خلفها بهدوء .. كنت واثقا أن الجسد ليس لي .. جسدي ليس قصيرا . نهضت من الفرشة ووقفت أمام المرآة : ياالهول ما أرى أنه جسد لم يسبق لي أن رأيته طيلة حياتي .. وخفت أن يصحو ولات ويرتكب بحقي حماقة لأنني غريب عنه . فتحت الباب وخرجت أبحث عن القامة في أرجاء القرية وعدت خائبا إلى البيت رأيت الناس يلتمون حول دارنا وأمي تولول .. أبي يزعق .. أخي ينظر إلى الأرض بكآبة .. صوت أمي المسكينة ينتشر : نهضنا ولم نجد ابننا في فرشته .. لقد خطفته الأرواح الشريرة .. سألنا عنه في المدرسة .. في كل مكان ولم نعثر له على أثر .. لقد اختفى ابني الغالي .. سأجن إنه صغير ، وما زال بحاجة إلى رعايتي .. أيها الرب أعده إلي .. إنه صغير .. ابني .. سأفقد عقلي إن لم ترده ..

نسيت نفسي أمام كلماتها وهرولت أقبل يدها وألقي بنفسي في حضنها .. فزعت وقالت : من أنت .. هل كان ابني رفيقك .. ألم تجده ..؟ وبدأت تغرز نظراتها الفاحصتين في عيني .. لم يسبق لي أن رأيتك في القرية .. ابن من أنت .. هل تعرفنا .. أأنت يتيم .. سنعطيك خبزا ولبنا .. لا تخف وابحث معنا عن ابني .. أتعرفه لو رأيته .

- أعرفه جيدا ..

وتأكدت بأنني أصبحت غريبا بالنسبة إليهم .. ولن تفيد محاولاتي .. فقط القامة بمقدورها أن تعيد جسدي ولحظتها سينتهي كل شيء ، وهرعت

صوب المجهول أبحث عن القامة وما أزال حتى هذه اللحظة أواصل بحثي عنها .
قال بعد أن استمع إلى كلامي :
هذا ما حدث معي
الآن قضيتنا واحدة .. ولا بد أن نتوصل إلى القامة المشؤومة التي تسببت في إثارة كل هذه الفوضى .

الإخفاق السادس

كل شيء يمضي مخلفا الذكرى التي ما تلبث أن تتحول إلى سراب حتى الإنسان تحيله الأيام إلى ذكرى قديمة قابلة للنسيان . تحيل وجوده وحضوره في العالم إلى مجرد حدث وقع في الماضي . أنني مولع بالحياة .. وولعي بالحياة يكمن في غيرتي الشديدة على بروين أنني غيور ممن سيعيشون من بعدي ويشتهون النساء ويسبحون في الأنهار ويتراكضون تحت الشمس أشعر برغبة في الركض .. في حمل الأطفال الصغار .. وما دمت أكن لبروين كل هذا الحب الجارف فإنني سأعيش من خلالها في أجساد العشاق الذين سيرثون هذا الحب العظيم ويحافظون عليه ، وبروين ستبقى حية ستفوح رائحتها من

كل عذراء تأتي من بعدها .. بروين سيسري ذاك الدم البرويني تحت جلد كل امرأة إلى أن ينهدم الكون وإذا متنا بروين ستجمعنا الأبدية .
حزين لأن قلبي يملك كل تلك الطاقة في الحب .. حزين لأشياء كثيرة ..
حزين لأنني حزين .. أتعلمين لأي حالة للحزن تسيطر علي ؟ وأي نوع من الحزن يوصلنا قمة النشوة عندما يبلغ الحزن إلى أقصاه يتحول إلى احتفال من نوع آخر لا يقوم به إلا من بلغ به الحزن أقصى درجاته .
يقول الباب : عندما تغدو مهووسا أعرف أنك مهووس
تقول النافذة : لا بد من فعل شيء .
يمد فأر رأسه : لا يقدم اليأس حلولا .
تمضي ذبابة عابرة : ما دمت أملك جناحين سأطير .
يصرخ الكرسي : لا تجلس علي
تتراقص العتبة : يصفر السرير .. تبكي الستائر .. ينزف السقف .. يتشاجر الحذاءان . ورويدا رويدا أختفي في عالم لا مرئي .. أهرع .. أبحث عني .. أين أصبحت ؟ .. غدوت شبحا من الأشباح أرى ولا أرى .. أنظر في المرآة ولا تعكس شيئا حتى المرآة تآمرت علي .. انفتح الباب ودخل ملا تنكة .. نظر في الغرفة .. تحت السرير ولم يجد أحدا . جلس على السرير وسحب طاولة الطعام وأخذ يلتهم الزبدة التركية والبيض والخيار ، ثم فتح زجاجة العرق وسكب منها في جوفه .. تأحأح .. أشعل سيجارة من علبة دخاني .. وصار يغني .. استلقى على السرير .. أخرج قضيبه وبدأ يمارس العادة السرية وهو يقبل صورة فنانة جميلة تتصدر غلاف مجلة فنية ، دنوت من الباب وفتحته بسرعة .. انتفض الملا وصار يردد آية الكرسي . تركته وخرجت .
اتجهت إلى بروين في العيادة كانت تقبع على كرسي في صالة الانتظار وتدفن وجهها في راحتي كفيها . جلست في زاوية أنظر إليها . رن الجرس

من داخل غرفة المعاينة .. نهضت بروين ودخلت إلى الطبيب لبث الباب نصف مفتوح فدخلت إليهما .. ناولته بروين النقود . وضعها في حقيبته ومشى نحو الخارج .. صاحت به بروين : ألن توصلني أشعر بأرق .

- أسرعي .. قالها الطبيب وهبط الدرج ..

أغلقت بروين الأبواب وخرجنا إلى حيث سيارة الطبيب فتحت الباب وجلست ولم أركب لسرعتها في غلق الباب .. فدخلت من النافذة المفتوحة وجلست جوار بروين في المقعد الخلفي .

كان الطبيب ينظر أمامه ويقود ببطء شديد وممرضته تنظر إلى الأسفل كأنها تود النوم دون أن يتحدث أحدهما مع الآخر طوال الطريق .

أوصلها جانب البيت ، وضغط على المنبه .

مد أخوها رأسه من الباب وهرع يصافح الطبيب ويطلب إليه أن ينزل ويتغدى ، لكنه أبى ذلك ببسمة واعدا إياه في مرة أخرى .

نزلت بروين ، ولحقتها في النزول .

دخلتْ باب البيت ، ولحقتها إلى الغرفة .

أغلقت باب غرفتها وخلعت ثيابها .

تجنبت النظر إليها .. لقد كان الموقف صعبا .. إنها بروين المستقبل لن أنتهك حرمتها .. سأغمض عيني إلى أن ترتدي ثياب البيت .

بعد قليل خطت نحو الحمام .. خطوتُ خلفها .. تسمرتُ . لم أدخل وراءها حتى لا أراها عارية حتى لا أرى عورتها .. إنها أكبر إهانة لتلك المخلوقة الطاهرة . وأعظم انتهاك .. بروين ستبقى نقية وإلى الأبد .. لقد استأصلت رجولتي " خرجت من الحمام " ودخلت غرفتها مرة أخرى تناولت العشاء وجلست تقرأ كتابا .

يا له من مشهد رائع .. بروين تستغل كل أوقاتها .. إنها ستقرأ إلى أن تغفو بدل أن تفكر عبثا .. بعد نحو ساعتين متواصلتين من القراءة وشرب

الشاي نهضت أغلقت الباب جيدا وأطفأت الضوء وأنارت النواصة .. واستلقت في فرشتها . حطت رأسها على الوسادة البيضاء وغفت في أقصى سرعة .. جلست بجانب رأسها .. أنظر وأنظر وأنظر إلى وجهها عينيها المغلقتين .. يالروعة هذه الأنفاس ويالهذه الرائحة الزكية .. أنها كتلة من الطهر .. من النور .. من الضياء . إنها زهرة تستريح في عشها الصغير وأنا أنظر في وجهها إلى الصباح .

لقد أمضيت ليلة كاملة مع بروين في غرفة واحدة .. أي شيء آخر أريد .

صباحا عدت إلى البيت ، كانت رائحة البغي تملأ الغرفة ..

تناولت ما خلفه الملا من طعام وأشغلت المسجلة .. حتى الجسد البديل استكثروه علي .. لا يعجبني أن أكون موجودا وغير موجود .

ينفرج الباب وتدلف القامة مرئية النصف .

- ماذا فعلت أيتها القامة المشؤومة ..؟
- سأعيد جسدك
- الآن .. أريده .. الآن
- دون تسرع .
- بعد كل هذا الانتظار ..
- انتظر أيضا ..
- لن أنتظر .. وقذفتها بقنينة العرق ..

لم تؤثر بها ..

قالت بسخرية : يا أحمق ، يجب أن تعرف أن كل من يعيش على الكرة الأرضية يخضع لمشيئتي . وأستطيع أن أفعل ذلك بالجميع وياما فعلت وأعدت وحدي ولا أحد غيري بمقدوره أن يجعلهم يعترفون بك .

- أي شيء فعلته بك .. كنت طفلا في بداية العمر .. لم أرتكب اثما .. أتدرين أي عذاب واجهني .. وأنت السبب . لقد تشردت وفقدت أهلي

.. أنا الآن بلا أرض .. بلا هوية بلا جنسية بلا اسم .. بلا رقم .. لست في عداد البشر وأنا حي .

- انهم يعرفون .. كلهم يعرفون .. أكثر منك هذه الحقائق .. ولكن الخوف مني يمنعهم من الاعتراف بما عرفوا ..

أنت جبانة .. وغدة .. منحطة .. سأتحداك .. وإن عانيت الشقاء طوال العمر

- لن ترى جسدك .. لقد جعلتك تراه وتتلمسه بعد كل ذاك الفراق ولكن للحظات فقط ، أجل لقد أعدت إليك جسدك للحظات ولكنك لم تكن على قدر حمله فأخذته منك ثانية حتى لا تعبث به وتهلك أنت قبله .. أنا أفعل كل شيء لتعقل ومتى عقلت سيعود جسدك وستحتله مثلما كنت .. وأنت غير عاقل لا تحاول كل محاولاتك الماضية باءت بالفشل وستبوء الفشل وستعود بالضرر إليك وإلى جسدك ، حينما تستحق أن ترتديه سيعود كشربة ماء .

وتختفي القامة مرئية النصف .. يعود الجسد البديل إلى التشكل بسرعة مذهلة .

الإخفاق السابع

من مال الله
كم تريدين
كما تريد
كل ما لدي
لا
على كيفك
أريد سيجارة
لا
وحدك هنا
وحدي
أتدرس
لا أدرس
ألا أحد يزرك
لا أحد

تقول المرآة العشرينية
أقول
تنظر نحوي
أهتف
تستدير
ارفع البطانية إلى رأسي
يأتي صوتها
أبرز رأسي
تجوب النظر في الغرفة
أجيب
تسأل
أرد
تصوب نظرها في الباب
أتقلب في السرير

كم لديك تقول باستعجال
مئة ليرة أجيب ببطء
فرشاية عالواقف تدنو إلي
عالنائم أقول
لا يا عم تجيب
مع السلامة
هات
تعالي
عالواقف تكررها
عالمستلقي أكرر بإصرار
لا أعطيك
أرجوك كيف
مع الثياب
بدون ...
لم أتزوج بعد
كذابة
قم أعطني
سأعطيك بعد
وإن لم تعط ؟؟؟
سأترك نصفها بيدك ونصفها بيدي
يتزحلق السروال الداخلي يرتفع الثوب المهترئ ،،،، تقبض على الورقة بعزم وفي أقصى سرعة يتكهرب جسدي تنسحب الورقة من يدي وتهرول المرأة مصفقة الباب بقوة .

أستحم بماء بارد . أتناول فنجانا من القهوة وأخرج نشيطا صوب محل ليزا .. المحل مكتظ بالنساء تسشور شعورهن تزين وجوههن واحدة تدخل وأخرى تخرج . وليزا لا تمل المساحيق والسشوار والمكياج والحمرة بمقدورها أن تحيل الجميلة إلى قبيحة والقبيحة إلى جميلة .

- أين كليستان ؟ قالتها ليزا دون أن تنظر إلي ؟
- لا أعرف .. أجبت
- ألم تمر بالعيادة ؟
- لا .. جئت من البيت ..
- أنت لا تخرج .. ألا تمل .. تعال إلى هنا .. سنتسلى وسنتعرف بالبنات .. أم أن بروين أخذت كل شيء .. أنت لن تكفيك امرأة واحدة .. كان الرب بعون بروين .. بل أنت لا تكفيك امرأتان
- وأنت أيضا لا يكفيك رجل واحد .

وعندما فرغ الصالون من الزبائن .. جلست على كرسي الدوار الذي لا يمل مؤخرات النساء . وبدأت ليزا تسشور شعري وتسرحه بدقة فائقة .. تلتقط الشعر من خدي .. نارية ليزا .. لا تمل التحدث في الجنس .. وحدها كليستان تفهمها .. عندما تناديها باسمها الحقيقي : إنجيلا ،،، إنجيلتي . تذوب فيها وفي أيام عطلة الإسبوع تجتمعان في غرفتي وتفرغان كل التوق .. وليزا تدمن كليستان تبادلها نفس الشعور وتعرض نفسها لأقسى ألوان المخاطر كي تنام ليلة واحدة في حضنها وتحس بطمأنينة العالم .

ليزا : أذوب فيك ..
كليستان : لماذا تتهربين دوما .
ليزا : أي نوع من النساء أنت ؟ بحق الجحيم ؟
كليستان : أي دمار يترقبنا ؟

ليزا : دعيني ولا تدعيني
كليستان : هل نستطيع أن نطير ؟
ليزا : خائفة أن نسقط .
كليستان : أنت كل ما لدي يا إنجيلا
ليزا : سأبوح لك بكل شيء .
كليستان : سنتزوج .. لم أعد أحتمل .. سنعيش تحت السرير .
ليزا : لن يدعنا الناس
كليستان : ستنجبين لي طفلا لايشبه أطفال العالم
ليزا : دعيني أمتص حلمة ثديك .
كليستان : من أين أتيت بهاتين العينين ؟ .
ليزا : أي دمار يترقبنا ..
كليستان : اخلعي هذه الثياب سأنام على جسدك .. ليلتصق البطن بالبطن والنهد بالنهد .. والفم بالفم .. والساق بالساق .. والفرج بالفرج .. سأملأ وجهك وجسدك بالقبلات .. تنتهي من شعري وتقول : هناك مغالطة تحدث على الأغلب : ألا يمكن لوردة أن تقع في عشق وردة .. أو أرنبة تعشق أرنبة .. إنه أطهر أشكال العشق .. لأنه الوحيد الذي يبقى عذريا .
إن الرجل لا يمكن له أن يفكر بإثبات رجولته إلا عندما يسقط المرأة عذريتها .. عندما يصادف وردة جميلة تتفتح على شجرة خضراء لتوها يمد يده إليها ليقطفها .. قد يغازلها كتمهيد وقد لا يغازلها وفي كلتا الحالتين سيقطفها ويأخذها إلى حجرته وعندما يستنشق رحيقها يقذفها من النافذة ويفتش عن وردة أخرى ..
أحدكم وهو يرى فتاة جميلة أول ما يخطر بباله انتهاك عذريتها .. ولذلك يبحث عن وسائل أدبية لجلبها إلى الفرشة .. سيقول لها : أحبك ..
وسيتسلسل الكلام إلى أن ينتهي على السرير وإلا ما معنى أن يتزوج

أحدكم ابنة عمه قسرا وبعد أن تحقق له الاكتفاء الجنسي يطلقها بعد يوم واحد . ولأضرب مثلا آخر .. هناك من يتزوج امرأة دون أن يراها أو يرى صورتها ويكتفي بإرسال أمه أو عمته لفحص فرجها وإن كان الفرج سليما قبل وإلا رفض . وتراه بعد مرور الأعوام يقول لتلك البائسة بكل وقاحة \ أحبك \ وهو يرى من خلف ذلك أن يمارس المزيد من القمع عليها فيمنعها من الخروج إلى الشارع والكلام مع غيره من الذكور حتى لا تعطي الجسد الذي يعتقد بأن ملكيته عادت إليه بعد قول تلك الكلمة لغيره .. وإن حدث وأحس سيخنقها .

المسألة بكاملها تدور حول الفرج .. لو كانت المرأة بدون فرج وبقيت كما هي الآن أنثى ألم يكن الموقف مختلفا ؟.. امرأة بدون فرج .. أو محرومة الفرج .. أهي مرغوبة .. وإن كانت ملكة في الحسن ؟.. هذا هو الجانب الأهم من مجمل الأسئلة .. إن النساء الحمقاوات اللواتي عجزن مع أزواجهن سيشعرن بعزلة حقيقية إذا تغيب أحد هؤلاء عنهن لشهر واحد .. يقلقن .. يضطربن .. يحترقن .. لدرجة أنك لو رأيت توترهن ستقول : إنهن يعشقن لأزواجهن إن هؤلاء – جميعا – يثيرون الشفقة لا لكونهم يكذبون بل لأنهم يصرون على إرغام نفاقهم على أنه صواب المسألة أشرس من تعثر اللسان .

- أنا يا ليزا لن أعلق .. ولكن أقول لكل إنسان مطلق الحرية في الكلام إلى أن يصمت من تلقاء نفسه أو ينفجر .. ما دام يحق للسامعين أن يقبلوا هذا الكلام أو يرفضوه .. وهذا لا يعني بأن المتكلم دوما على خطأ : إن العذراوات اللواتي يمنحن مؤخراتهم للرجال أنهن يفعلن ذلك من تلقاء أنفسهن .. بل هن يعتصرن الرجال ويحلبنهم .. والرغبة تكون في أعماقهن .. أنهن يجرجرون الرجال .. وهذا لا يعني أنني

أرفض كلامك السابق في مسألة حب الرجل للمرأة أو حب المرأة للمرأة ولا يعني أنه لا يجوز لك رفض كلامي كما لا يعني البتة . أنك حمقاء وأني يسوع .

مساء كانت كليستان وليزا في الغرفة وبعد قليل جاءت هالة ثم لحقتها بروين متأخرة .. جلسنا جميعا ننتظر وصول الملا تنكة . في أمسيات الأخاميس نلتقي جميعا هنا ونمضي نحو ساعتين ثم تنصرف هالة وأرافق يروين إلى البيت ويذهب الملا إلى غرفته لألحقه بعد أن أوصل بروين فتبقى ليزا مع كليستان في الغرفة .

فتح الملا الباب دون يطرقه كالعادة وقعد في مكانه دون أن يلقي السلام بدخوله فاحت روائح نتنة من ثيابه التي لا يخلعها ليلا نهارا .. صيفا شتاء .. ومتى ما رأينا الملا وفي أي وقت يكون بتلك الثياب التي عهدناه بها . ثلاث كنزات داخلية .. قميصان .. عليهم ثلاثة جلابيب وفوق الجلابيب كنزة صوف مهترئة وضخمة عليها معطف واسع الردن يصل إلى الركبتين وفوق كل هذه الثياب جبة سوداء مرقعة برقعة بيضاء من الخلف . بالإضافة إلى السراويل الداخلية القصيرة والطويلة . والجرابات والعمامة البيضاء الضخمة التي تتلبس رأسه وقد أحالتها السنوات إلى بنية الشكل .

تقول هالة وهي أقربنا إليه وهي التي عرفتنا به : لا أحد يستطيع أن يغسل كل تلك الثياب . المعطف وحده يحتاج لثلاثة أيام من الغسيل والتجفيف والملا لا يستطيع أن يبقى عاريا ليوم واحد لأنه إما أن يرتدي كل ما لديه من ثياب دفعة واحدة أو لا يرتدي شيئا .

نظرت بروين إلى ساعتها .. كم تؤلمني تلك الحركة التي تواظب بروين عليها على الدوام فأحس بأنها ستنهض بعد قليل .. وضعت إبريق الشاي إلى جانب الكؤوس ومدت بروين يدها إلى علبة السكر .

قالت ليزا : نحن يا ملا نفخر بصداقتك .

بحلق الملا فيها بعينيه الكبيرتين البارزتين ولم يجب وضعت بروين في كل كأس ملعقة سكر وسكبت الشاي الساخن .

قالت كليستان : لماذا يا ملا لم تتزوج ؟

قال : كل اللواتي أحببتهن ، أحببن غيري كل اللواتي عشقتهن ، عشق غيري كل اللواتي وددتهن ، تمردن علي واختفين وحدها تلك التي لم أحبها قط ما تزال تحبني منذ ستين سنة .

ما تزال تترقب خروجي في الطرقات منذ ستين سنة لأنظر إليها نظرة عطف وشفقة .

لم أتزوج لأنني لم أستطع العثور على المرأة التي تستحقني بسبب انشغالي بالسفر والقراءة والدين .. الحب يعني التحدي يعني الإصرار على الحياة .. يعني الأبدية فقط عشاق العالم استحموا بنور الأبدية ومياهها في عيون حبيباتهم وهن يبكين على أكتافهم في الأزقة وتحت الأشجار .

قالت ليزا وقد وجدت خيطا للحديث وبدأت أقترب من بروين وأنظر في عينيها السوداوين الخصيبتين .

- هل الجنس ضرورة لمواصلة الحب ؟

أجاب الفقيه : الجماع أساس التكاثر .. لقد خلق الله الذكر والانثى ليتكاثر الناس وليس لينظر كل واحد فيهما بوجه الآخر ويتصوف .. إن الشجرة وحدها لا تكفي عندما نغرسها في الأرض . وهي تحتاج للمياه كي تنتج

وتساهم في العطاء وإضفاء الجمال .. كل ذلك لاكتمال رسالتها .. وماذا تقول الشجرة للشجرة ؟.. هل تستطيع أن تقدم لها شيئا .

- لإذن لا حب .. بل جماع ..
- أنا هنا .. أفرق بين الحب والجماع .. الحب شيء والجماع شيء آخر .. الحب عاطفة .. عالم آخر .. إحساس بالجمال والجماع .. واقع .. ردة فعل .. مادة .. شهوات .. مواجهة .. وحتى نرجسية .. ليس بمقدوري أن أتواصل إلى تلك الدرجة العالية من الحب وبعد ذلك أضاجع ذاك الحب .. هذا نوع من الخداع .. أنا أقول هذا ليس من منطلق ديني .. وليس لصفتي فقيها .

وقالت ليزا : .. أريد أن تتوسع في هذه المسألة لو سمحت .

قال الملا : في أي مسألة ؟

قالت ليزا : في مفهومك للزواج ..

أجاب الملا : أنا شخصيا أضربت عن الزواج وقد بلغت الخامسة والثمانين .. ولكن الزواج حاجة وليس حبا .. المرأة تفكر بشخصية مستقلة تميزها ..

فلا تجد غير الرجل يعينها على ذلك .. وبالطبع لا يجوز لها أن تعيش مع هذا الرجل دون أن يأذن لها الأهل والمجتمع بذلك .ز والأذن أن يذهبا إلى المأذون ليعلن بأنهما يستطيعان العيش في غرفة واحدة دون أن يزعجهما المجتمع فتبدأ المرأة بتحقيق طموحاتها ويبدأ الرجل في تكوين شخصيته المستقلة وبيته المستقبل وعليه سينجبان الأطفال وينخرطان في معركة الحياة .. وممارسة الجنس ليلا تكون ردة فعل جهود ساعات النهار وبدونها لا يتجدد الطموح .. لهذا .. أحب أن أضيف ومن منطلق ديني بحت هذه المرة بأن الاسلام يشجع على النكاح ويدعوا إليه .. بل ويضعه في مرتبة العبادة . .. " وانكحوا الأيامى منكم " ويقول الرسول . " النكاح

سنتي .. فمن رغب عن سنتي رغب عني " . وفي مناسبة أخرى قال : " من رغب عن سنتي فليس مني وإن من سنتي النكاح فمن أحبني فليستن بسنتي ". الرسول الكريم أكثر من أن يكون ذكيا .. ونتشرف أن ننتمي إلى هذا الرجل العظيم ونتربى على مبادئه وأفكاره وأخلاقه . من يقرأ هذا الرجل لا يملك إلا أن يكن له الحب والتقدير حتى ولو كان من أشد أعدائه . الحكم عليه قبل قراءته يعد من أفدح الأخطاء " تناكحوا .. تناسلوا .. فإنني مباه بكم الأمم يوم القيامة ".

قالت بروين : لندع الدين .. ونتحدث في السياسة .

أجاب الملا : لقد وضع غاندي نظرية كبرى حينما قال :" إن أولئك الذين يزعمون أن الدين لا علاقة له بالسياسة لا يعرفون معنى الدين " . الدين يعجز عن مواصلة رسالته إذ عاش في معزل عن السياسة .. في القرأة من السياسة ما فيه من العلم والطب والأخلاق والأدب . ناولته سيجارة فأخذها دون أن ينظر إليها وعلقها بين شفتيه ولبث صامتا ينظر إلى الأرض . عندما بلغ الملا سن العشرين أشهر إسلامه وأعلن بأنه لم يعد مسيحيا ومن يومها وهويعكف على القراءة وأهمل كل شيء من أجل ذلك . وما يصله من الزكاة والفطرات والصدقات يكفيه لشراء الكتب والطعام ودفع أجرة البيت .. ومرة وقع في يديه كتاب \ الجلوة \ للشيخ عدي وقرأ فيه :" الذي كان ويكون هو أنا وفي يوم القيامة أنا أحكم على جميع من في الدنيا " ومرجع كل الذين يعبدوني إلي " . لقد ارتعب الملا وقال : ليتني قرأت هذا الكتاب قبل تشهير إسلامي .. وبدأ يمقت الخس ويسافر إلى جبل جودي وينخرط بين اليزيدين ويقول : أريد معرفة كل شيء عن هذا المذهب فتعلم المبادئ القريبة من الزرادشتية ابتعد الملا عن اللون الأزرق ولم يعد يردد حرفي \ ش – ط \ الدالين على الشيطان ووضع

الشيخ والطاووس في مرتبة واحدة . ويوم الأربعاء من شهر نيسان الرومي يذهب برفقتهم إلى المقابر يرقص ويأكل ويشرب حتى الصباح .. وقد علموه أن يصوم ثلاثة أيام في السنة .. وبغتة عاد الملا إلى بيته وأشهر إسلامه للمرة الثانية .. واتهمه الناس بالهوس : لقد جن الملا لكثرة ما قرأ وسيغفر له الله ذنوبه . نظرت بروين وقالت بخفوت : الملا بلغ قمة الالتزام .

قلت كيف ؟..

قالت وهي تنظر إليه يتحدث : بلغ اللا التزام وسوف يتمسك بموقفه كالأنبياء .. اللا التزام في عمره المتأخر جدا يؤدي إلى التزام عنيد .. إنه الآن يتأهل لإعلان فلسفة مذهلة . إنني أرى صورة جلية للشيطان في وجه تنكة . وأضافت : أنا أخشى من كل شيء يجري حولنا الواقع قاس ويفرز نماذج مربكة نعجز عن استيعابها وإلا بماذا تبرر مشهد رجل يتبول على قبور الآخرين ويطلق قهقهاته في السموات اللا متناهية ؟ لنفرض أن رجلا جاء وصفع آخر دون أي سبب سينظر المصفوع إليه ويدرك أنه لا يستطيع الرد فيدخن سيجارة أو يقدم شكوى إلى مخفر ما حتى ولو كان متأكدا بأن المخفر لن يقدم له شيئا . وعندما يعود إلى منزله قد يصفع ابنه الصغير أو زوجه في محاولة للرد على الصفعة التي تلقاها في الخارج . إن العواطف والمشاعر الأبوية والإنسانية ستختفي وتبدأ وحشية الإنسان في الظهور تتطور وتتحول إلى صراع بين الإنسان وأخيه الإنسان وتتسع هذه الوحشية لتأخذ أبعادها ويصبح المعتدى عليه في تلك اللحظات مستعدا لمجابهة الوحوش ذاتها وقد ينتصر عليها . بل قد يعود من ثانية إلى الصافع ويحاول الانتقام من جديد بحرص وعناد ..

الملا يتحدث عن علاقة أختينا الكريمتين ليزا وكليستان وفق هذا المنظور بيد لأن الكلمات تتعثر في فمه فتكون أقل تعبيرا عن المعنى .

- على المرأة أن تكون امرأة وعلى الرجل أن يكون رجلا قالها الملا ووضع عمامته بجانبه .. ثم أشعل سيجارته وأخذ يعدل في جلسته ويضع الوسادة في حضنه . الذين يعتقدون ألا فرق بين الرجل والمرأة هم أناس لا يبصرون إن معظم ما في المرأة يختلف عن الرجل من الدورة الشهرية إلى الصوت .. إلى الأعضاء .. وأضاف بصوت مرتفع محاولا إشراكنا في السماع : نحن بطبيعة الحال نفضل المرأة \ الأنثى \ واعتقد بأنها تفضل الرجل \ الذكر \ لا الرجل \ الأنثى \ أنا أميل إلى تلك المرأة التي تخلف في أعماقي الإحساس بمعنى الأنوثة .. – لندعه يتحدث مع ليزا .. هل أنت تفكر كما يذهب الملا في علاقة الرجل بالمرأة .
- أنا أختلف عنه لأن ثقافتي غير ثقافته .. وتكويني غير تكوينه .. ولدي القدرة في التحكم بغريزتي بفضل ثقافتي وتجاربي وقراءاتي .
- ولكنني خائفة ..
- ذلك لن يكون نهاية الخوف .
- حتى تنكة وهو يتحدث أحسه وحشا .
- أيضا هذا لا يضر أحدا القطار لن ينقلب لأنك تحسين على هذا النحو .
- أنا أيضا أعتقد ذلك .. ولكن تربيتي السيئة تسبب لي الكثير من المشاكل .
- هذه إحدى الأسباب .. لقد قلت لك اقرئي وستتخلصين من كل هذه الاشكالات ...
- أجل أعلم بأن ثلاثة أرباع المجتمع مصاب بالفصام ولا يولي هذا المرض أهمية .. نحن بحاجة إلى أطباء .. أتعرف لو أصبح لدينا أطباء لهذا الداء سيقل عدد أطباء القلب .. لأن المريض الذي يشفى

الفصام لن يصاب بالقلب .. مرض القلب يأتي بعد أن يأخذ الفصام مكانه .. أغلب الناس يموتون بالجلطات وأمراض القلب .

- نظرتك ستكون أعمق لو أمعنت في حركات الأفراد .. انظري مثلا إلى رجل يحمل مسدسا على مؤخرته ويظهره من فوق القميص .. وعودي إلى أسرته .. إلى أبيه .. هذا الرجل يعاني نقصا في البيت .. والإرهاب يمارس عليه مذ كان طفلا .. فيرى قوته في ذلك المسدس ويود أن يريها للآخرين ليبين إنه غير ناقص وقوي ،، ولو وضعنا هذا الرجل في مكان فارغ من الناس لرأيناه يخفي هذا المسدس ،، الكل بات يميل إلى ممارسة السلطة .. حتى الخادم يمارسها على غيره .. لقد أصبحوا كالكلاب المسعورة ينهشون لحوم بعضهم البعض لأجل تعويض النقص انظري إلى هذا التقسيم في الأسرة يمثل الرجل الأول الذي يجب أن ينفذ كل ما يراه والابن يبحث عن شخصية مستقلة تميزه عن أبيه وتجعل له كيانا مستقلا في المجتمع . فلا يجد أمامه غير الثروة لكونها ستؤهله لاتخاذ ذلك القرار سيفني هذا الشاب عمره من أجل الثروة ولن يقدم أي مساعدة مادية لغيره .. وسيتنازل عن قيمه من أجل أن يصبح ثريا . وهنا يفقد أخاه وأباه وبعض أقاربه وجيرانه .. لأنه يخرج صباحا من البيت ولا يعود إليه إلا في الليل ويتباهى بمقدار ما استطاع أن ينصب على الآخرين طوال ساعات النهار . أمام هذه الشخصية تولد شخصية الابن الثاني وتكون على نقيض أختها فتلجأ إلى التنظيمات السياسية وتتفرغ للعمل في مجال السياسة وتكون قلقة غير مستقرة وتعجز عن تقديم خدمة لأي تنظيم لأنها بالأصل جاءت لتأخذ .. جاءت لتسخر من أختها .. وتبرهن لها بأن المال ليس كل شيء .. فترينها متنقلة من اليمين إلى اليسار من الإصلاح إلى الثورة .. من القومية .. إلى الشعارات الأممية . ونتيجة

ظهور هاتتين الشخصيتين وصراعها تولد شخصية ثالثة في الأسرة الكردية الواحدة وهذه الشخصية تميل إلى العمالة والتملق وغالبا ما ترفض حتى لغتها وتتفرغ للتخريب ونقل الأحاديث مع إضافات .

- من هذه الشخصيات تمخض شخصية قلقة .. تلجأ إلى الشذوذ .. والفوضى .. نتيجة عدم الاهتمام بها .. فتكون نصف مجنونة .. تتعرى في الطرقات وتدمن الخمور .. تتقيأ على الأرصفة .. تشتم الجميع علنا متسلحة بسلاح الخمر والهوس .. إنها مجابهة الواقع ورفضه .. هذه شخصية هامة علينا أن نقدم إليها الكثير من العون لأنها سامية وغير مخربة إذا انفتح أمامها مجال العطاء . بالمقابل تأتي شخصية المرأة الكردية التي يسري الدم الكردي في عروقها .. وهي سلالة هذه الشخصيات وأنت كأنثى على إطلاع بهذه الشخصيات المربكة على نحو أوسع وأدق مني .
- ونحن .
- هنا تكمن الطامة .. نحن نعيش في قلب هذا المجتمع ولا يمكن لنا أن نتجنب الإرهاصات ولكن تستطيعين الابتعاد عن التخريب والثقافة وحدها السلاح الأكثر فاعلية .. كوني يا بروين هادئة .. احترمي لآراء الآخرين .. لا تحكمي على لآرائهم بحسم .. لقد منحنا العقل لنستخدمه ومن يستخدم العقل لن يسقط .. عندما يشتمك أحد في الطريق لا تشتميه ، أقنعيه بأن النقاش سيقربك منه أكثر من الشتائم حاولي أن تحسمي الأمور بالنقاش والتفاهم والطيب .. حينما تودين العمل في مكان آخر .. حاولي بالاقناع حتى لا تلحقي به الضرر . هذه الأمور البسيطة تكون شخصيتك وتميزها ..
- سأضل هنا حتى الصباح .. هل تسمح لي بالبقاء ؟

- لا يمكن لي أن أطردك ولكن من الأفضل أن تكوني الآن في بيتك لأنه من حق أهلك البحث عنك عندما يتأخر الليل لأنك صغيرة .. إننا نعيش في قلب المجتمع الذي نتحدث عنه وأنا الآن أتوقع دخول أي قريب لك ، يقف قبالتنا ويطلق النار على كلينا ثم ينصرف لا إلى البيت لكن إلى أقرب مخفر ليعلن وبرأس مرفوعة أنه قتلنا .
- أأنت خائف ؟
- لست خائفا .. لكن لا أسمح لناقص أن يعلن نقصه بدمنا .. لا أسمح أن نكون الضحية .
- الواقع قاس وهذا بديهي لكن بالرغبة الحقيقية في التغيير والإصرار نستطيع أن نجعل الواقع القاسي أقل قسوة ونجعله يرضخ لأفكارنا ورغباتنا .
- بالطبع لا أبارك الاستسلام مهما كان شكله الاشكالات العظيمة تحتاج لمجابهات عظيمة كل شيء سيغدو أقل ألما ما دمنا نصر على العدل ونرفض الظلم . إن ما لا يبعث على التفاؤل ونحن نواجه الأخطار العظيمة أن يفكر كل واحد في اتجاه معاكس للآخر .

قال الملا وقد أوضح بأنه كان يصغي ألينا بانتباه شديد : هذا كله يدعونا إلى أن نساهم في تغير مفاهيم الأميين .. أن نقترب منهم .. أعلم بأننا سنشقى نتيجة سعينا لأنهم لأنهم سيقفون موقف المدافع عن نفسه الذي يعتقد بأنه يبعد الشرعنة .. يضربنا من أجله ونضربه من أجله إلى أن ننتصر وننصره على نفسه وستكون ضرباتنا أقل إيلاما كضربات يد أم رحيمة .

قالت بروين : يا ملا .. مهلا .. ليس بهذه السرعة يحدث الانقلاب .. الأرض تحتاج لسنوات حتى حتى تحث الزلازل .. والمرأة تمر بسنوات من الحيض حتى يحدث الحمل .. لسنا كأبناء الغرب .. يقولون بأننا أبناء

الشرق وحتى الآن لم تشرق الشمس في شرقنا لأنها ما تزال مشرقة في غربهم .. وأنت جالس تضع المخدة في حضنك يحلو الحديث .. لا أيها الفقيه المهذب أنا أشك بأنك دنوت من مرحلة التخريف .. أين كنت ؟ هل حقا أمضيت ما يقارب القرن هنا ؟... أنت مخرب يا ملا مع احترامي الشديد لسنك . هل تعرف وأنت هنا الآن ثمة من يمارس عليك النصب في الخارج .. وأنت تأكل تنصب .. وأنت تموت تنصت .. وأنت تدفن تنصب .. حتى وأنت تنصب تنصب .

شكرا أيها الفقيه .. أنا لا أشاركك هذا التفاؤل .

قال الملا وقد حك لحيته : : رغم العديد من التجارب والمحن فإن سني المتقدمة وكبر نفسي ليجعلانني أحكم بأن كل شيء حسن وعلى ما يرام " .

الإخفاق الثامن

وأتهرب من الجميع .. أعيش وحيدا منعزلا .. ويتجدد الشعور بالانتحار .. عندما تكون بروين بعيدة أحس بفراغ مدمر .. وحدها بروين تملأ الغرفة علي .. وأنا لا أستطيع أن أقدم لها شيئا .. كم فكرت بها .. كم راودتني أفكار ساذجة .. لكن لا .. لست أنا من يسعد بروين .. لست أنا من يستحقها .. سأسبب لها الشقاء إذا ما فكرت بذاك النحو .. بروين طفلة التاريخ .. لن تحتمل أي صدمة .. لقد خلقت لتبقى مبتسمة .. الآن عدت إلى صديقي القديم عدت إلى مشروع الانتحار .. أشعر برغبة جامحة في بقر بطني .. سيكون الانتحار رائعا .. سأهدأ وإلى الأبد .. سأتخلص من آلام القلب ووجع العقل والانتظار ..
وهالة .. والجسد المستعار .. سأبقر بطني على طريقة فرسان اليابان الشجعان على طريقة \ السيبوكو \ لدي رغبة ملحة في بقر بطني .. وهذا الشعور يلاحقني كلما حملت شيئا يبقر الأكراد لم يكونوا شجعانا ، لم يبتكروا طريقة للانتحار . سأنتحر وسيكون لي قبر ..وستزورني بروين وتزرع على قبري الزهور .. قالت لي : إذا مت قبلك أملأ قبري بالزهور . إذا مت قبلي سأملأ قبرك بالزهور ثم سأموت .. خلال الأعوام الماضية استطعت أن أتغلب على الشعور بالخوف من الموت لم يعد الموت

يرعبني كما كان .. أنا لا أحب الموت لكن غيرتي على الحياة ومشاعري نحو بروين .. تدفعني نحو الموت .. رغما عني سأعود إلى حياتي الماضية .. سأعود إلى حياة التسكع وسأنسى بروين إنها تسبب لي أعظم عذاب ... أشعر بإثم كبير وأنا أحدثها .. لن أكون أنانيا لتحترق في جحيمي .. بروين طفلة الجبال المدللة .

سأذهب إلى ليزا .. مرة قالت لي : أحيانا أحاول التبول واقفة كالرجال . كل كلماتها تثير الشهوة .. ليزا امرأة مشتهاة على الدوام . كل ما فيها يثير الرغبة .. يحرك دودة الغريزة وينضج فيها الروح ، يالذاك الجسد الأنيق الطازج .. يالذات الوجه الطفولي .. ثمة نساء تجعلننا نشعر برغبة جامحة في مضاجعتهن وهن يتحدثن .. وهن يصمتن ... وهن يبتسمن .. وهن ينظرن .. وهن يمشين .. نارية ليزا .. من النوع الذي يوقد الشرارة الأولى وينسحب تاركا النار تأكل الأخضر والأصفر .. والآن لن أخفي رغبتي القديمة .. سأظهرها وسأحاول أن أناديها " إنجيلا " وستفهم ما أعني .. إنجيلا .. اسمها الذي يثير شهوتها .. وأنا من أعماقي أود أن تلملمنا فرشة لليلة واحدة ساعة واحدة برفقة تلك العذراء الإيروسية الملتهبة .. كل شيء فيها يختلف عن هالة .. هالة متعبة يضج فرجها بمواد لزجة منذ المرة الأولى . ولا أحس بلذة المضاجعة .. أكون كمن يسبح في الماء وليس في الطين .. أود أن أسبح في الطين لأشعر بلذة السباحة ليزا عذراء .. أنيقة .. ليزا بكامل أنوثتها .. ليزا الممغنطة .. الجذابة .. مرة واحدة حاولت معها وكادت محاولتي تنجح لكنني لم أتابعها عند تعرفي ببروين .. الآن سأعود من حيث ما وصلت معها .. كان المحل فارغا فانجذبت إلى نهديها الصلبتين .. مددت يدي .. وقفزت ليزا .. إلى الخارج وهي تشير إلي الخروج ولم أخرج ..

قلت : سأسألك سؤالا .

قالت : سل
قلت : هل ضاجعك أحد ؟
قالت : لا ..
قلت : وعندما كنت صغيرة .. ألم يقبلك أحد ؟
قالت : أنت قلت سؤالا ولم تقل محضرا .
قلت : آسف .. لكن لماذا لا تأتين إلى الغرفة بمفردك ؟
قالت : ألديك شيء جديد عن الجنس ؟
قلت : لن تنفعك الصور .. سنبلغ اللذة ..
وستموتين بعد ذلك غير نادمة على العمر .. وهناك أمور أخرى أجمل .
قالت : أي أمور ؟
قلت أفلام فيديو .
عندما نشاهد الأفلام ستنفعلين وستشعرين بظمأ .
قالت : لكنها ممنوعة .
قلت : سأتدبر الأمر .
قالت : وأين يحدث ؟
قلت : سنستأجر الفيديو والأفلام ونذهب إلى الغرفة .
قالت : أنا خائفة .. هل نسيت يا مجنون .. أنني عذراء .. ستفقدني عذريتي .
قلت : لن أقترب من عذريتك
قالت : وكيف اللذة ؟
قلت هناك ستعرفين أن ثمة أمور توصلنا إلى اللذة دون أن نقترب من المكان المحظور .
قالت : هذا بالنسبة لك .. وأنا أتألم كيتيمة .

أتخيلها عارية .. مسترخية بجانبي .. سكرانة .. جسدها الرشيق يخدر تثيره المشاهد المثيرة .. سينفعل وترتخي العينان .. ترتجف النهدان .. يخفت الصوت .. تصطك الركبتان .. وتتحرك دودة الشهوة في النهد الأيسر .. وعندما أمد يدي إلى حلمة الثدي وأمتصه .. ستشتعل شمعة الغريزة وتلهب الجسد الذي سيتحول إلى بالونة منتفخة في حر شديد تنتظر أي وخزة لتنفجر . يا امرأة أريد جسدك .. لن أخجل من هذه الرغبة لكن إلى أي مدى سأبقى متمسكا به بعد أن يحقق الرغبة .. في تلك اللحظات الهاربة عليك أن تكوني قوية الملاحظة أكثر من أي وقت مضى وعلي أن أكون غائبا عن الوعي أكثر من أي غريق . دخلت هالة حاملة بيديها كيسا كبيرا يظهر منه التفاح فقط ،، حطت الكيس على المائدة ، وجلست على طرف السرير لبثت مسترخيا في الفرشة . مدت يدها من تحت اللحاف إليه ،، ووقف بين يدها ضغطت عليه برعشة : ألم أقل بأنه لي وحدي لقد ملأ يدي بعد أن كان مثل فأر صغير مريض مددت يدي إلى حلقها ، نزلت إلى مساحة الصدر وتمددت هالة على بطني خلعت بيجامتي ورفعت فستانها الصيفي الشفاف ،، كنت أعرف بأنك ستعود إلي .. وحدها هالة تعطيك كل شيء ،،

- صبي لي كأسا يا هالة ،،،،

ملأت قدحين صغيرين وقالت لي بحرقة وألم :

اشرب يا سيد اشرب
جميعهم تخلوا عنك ...
الكون كله تآمر عليك ...
وحدك في المواجهة ،،،،،،،،،،،،،،، كلهم سقطوا
اشرب يا طفلي الصغير يا بيتي ،
لم يبق لدينا غير الشرب .

- كل شيء وهم أننا نجري خلف السراب ،، بدون أي جدوى لقد انكسرت معنوياتي ،، ماتت نفسي ،، لم تعد لي رغبة حقيقية في أن أعيش ،، وأنا أكلمك أشعر بأنني ميت وغير موجود هل ترينني يا هالة ؟؟؟ لا فرق عندي إن مت أو عشت أو أي شيء آخر ، لقد خسرت كل شيء . ولم أظفر بشيء واحد وأعرف الآن لا توجد حقيقة أراها غير أنني أضاجعك ،، هل أنا هنا حقا .. أتسمعينني ... تعالي نفعل شيئا ما ..
- ضاجعني ،، لقد عدت إلي ،، ها قد جلبت لك تفاحا كل ،، لقد هزلت من يوم تخليك عني ،، الجنس يعيد إليك صحتك ورشاقتك ،،، كنت تحترق وأنت تنظر إلى بروين كنت أرى الدخان في عينيك ،، أجل كنت تنظر إليها بألم وحرقة المرأة التي لا تدعك تضاجعها ، تتآمر على قتلك مع الشيطان .
- يا هالة احترق ولا يطفئني
- لقد أتعبك المشروب أرجوك لا تتكلم ،،، ماذا حدث هل أعطتك بروين سما للتخلي عني .
- لا أعرف ،، اشعر باختناق ،،، صبي لي كأسا أخرى ليغمى علي ،،،
- كفى أنت ترتعش ، ألم تأكل شيئا هل كنت ميتا وعدت إلى الحياة الآن إنك تشبه الأموات .
- لا أستطيع المقاومة أعطني كأسا سأنفجر أشعر بلغم في قلبي أين الديازيبام ناوليني أربعة أقراص أريد أن أفقد الوعي بأي شكل أرفض الحياة لم أعد أحتمل الألم ، جسدي كله يتشنج سأموت يا هالة أرى نهايتي على قرب شبرين تزحف إلي لا بد أنها النهاية .

- اطمئن والله العظيم أنت معافى ، فقط بروين أحرقت دمك وأعصابك من كثر التفكير بها ،،، هل سحرتك فتش المخدة هل رأيت شيئا غريبا في الغرفة ، لو ضاجعتها لما حدث لك هذا .
- لا تتكلمي يا هالة ،، اصمتي
- ستشفى ،، ما دمت قررت أن تنساها ، سأضع لك برنامجا سأملأ غرفتك طعاما وستعود صحتك أفضل مما كانت هذه الحالة تأتيك عندما تضطرب وتصاب بسوء تغذية لقد حفظتها نم يا حبيبي . أغلق عينيك وأنسى الديازيبام خذني في حضنك واستمتع بي ولن تموت ستأتيك الحياة ، أغمض عينيك ولا تفكر إلا بي ، إنس كل شيء ، العالم كله جحيم .. هل أغلقتُ الباب جيدا ؟؟؟؟

الإخفاق التاسع

تناهت طرقات خافتة على الباب ..

- من

أنا بروين ..

جاء الصوت الملائكي من الخارج ليوقظ عالما من الذكريات في أعماقي .
فتحتُ الباب وتسمرتْ عيناها في عيني ودمعتا .. وعادت الغصة إلى حنجرتي .
عرفتُ بأنها جاءت إلي قبل ذهابها إلى العيادة ، لذلك بقيتُ واقفا قبالتها ..
قالت : أأنت مريض ؟.
ولم تدعني أجيب .
عدت إلى الوراء .. وأشرت إليها بالدخول ، دخلت وجلست على الكرسي ..
وجلستُ على طرف من السرير :

بروين .. كي أحافظ على طهارتك
لم يبق لدي ما لم ألوثه
لوثت كل شيء .. حتى دمي
تمردتُ على أخلاقيات العصر
فعلتُ كل شيء يا قديسة لأحافظ على طهارتك
كنت أظن بأننا نستطيع أن نوجه سفينة الحياة في الاتجاه الذي نريد ، لكن التيار عنيف يا بروين عنيف ويحمل معه كل شيء ضدنا ، وما أصعب التصدي في زمن انهزامي .. حتى الجسد لم يعد يحتمل والسفينة تمضي يا بروين .. تمضي في بحر بلا قرار .. أتذكرين حينما كنا ..
أتذكرين ..
كنا نحلم أن نغير العالم بأفكارنا ..
كان المشروع ساميا ..
نبيلا ..
لذلك كله قرأنا التوراة ..
الإنجيل ..

القرآن ..
قرأنا القديس بولس ، والإمام النووي ، والطبري
قرأنا أفكار الأنبياء ..
الفلاسفة ..
العشاق ..
الثوار ..
كنا نحلم أن نغير العالم بأفكارنا ..
كم كنا حمقى ..
لم نسمع بجلطات القلوب ..
جلطات الأدمغة ..
جلطات الأفكار ..
ليتنا بقينا في حلمنا الذي لن يتحقق .
حتى الحلم قابل للإهانة ..
لقد تحطمت نفسي ..
تحطم قلبي ..
اسودت الدنيا ..
كل شيء يا بروين قابل للإهانة ، حتى الطهر ..
إن العالم ليس بخير ولن يتغير بأفكارنا ..
أتعلمين إلى أي مدى أحسد الأموات .. لأنهم بلغوا الأبدية .. لأنهم ارتاحوا في قبور مهجورة ..
أحلم بقبر مهجور بعيد عن صخب العالم ..
قبر منعزل لا يزورني أحد لأستريح وأنام نومة أبدية ..
كم أنا بحاجة لمثل ذاك القبر ..
لقد يئست من هذا العالم السافل ..

عن أي شيء أحدثك ..
عن شيركو الذي لوثوه ..
عن أمي ..
عن أبي ..
عن جسدي المفقود ..
عن أسماء أمراضي ..
عن أي شيء يا بروين ..
فقر الدم ..
تشنج في عضلة القلب ..
الرقبة ..
لحلق ..
الساق ..
اليد ..
أورام في الحنجرة ..
روماتيزم في المفاصل ..
آلام الظهر ..
تشقق في اللسان ..
أوجاع في القفص الصدري ..
نوبات صرع في الأذنين ..
صداع في الرأس ..
ضيق متواصل في التنفس ..
تسرع في خفقات القلب ..
الخوف من الليل ..
من الجدران ..

من الأماكن المغلقة ..
من الطرقات ..
كل شيء يغفر فاه ليبتلعني ..
الآن بت واثقا أن الذين تنهار معنوياتهم وتتحطم آمالهم يكونون بخير ، يحتفلون باللا شيء الذي بقي لديهم .. يتوصلون إلى الحقائق ويكتشفون " لعنة العصر الكبرى " وحدهم يتراقصون بثياب الحداد الأبدية ، ويحتفلون بأوجاعهم في الدرك الأسفل من الجحيم .. يتوصلون إلى أقصى ما يمكن أن يصله مخلوق .. ومن هنا ينطلقون من جديد .. يصنعون نظما وأسسا لحياتهم الجديدة وفق ما يريحهم .. أبدا يا بروين وحدهم يتحررون بشكل مطلق من هاجس الخوف ومن عيون الحاقدين .
بروين ..
هنا سأمضي الأيام المتبقاة لي ..
سأحبس نفسي في هذه الغرفة ولن أفتح لأحد ، سأبقى بعيدا عن الخارج .. السمع لا يجلب لي غير المزيد من آلام الحواس والرؤية لا تجلب غير وجع العقل .
ليست القضية أنني لا أود أن أعرف ..
عندما أعجز عن فعل شيء وأكون واثقا بأنني أستطيع أن أساهم تكون المعرفة مجلبة للعار .
أشعر بأنني فقدت كل شيء وليس هناك أفضل من الموت لفاقد أمل مثلي .
- الآن ينتظروني الطبيب .. سأذهب .. انتظرك في العيادة .
ملكتي بروين بكامل حضورها تدعوني .. هل بمقدوري قول شيء ، عندما تملأ الغرفة نبرات بروينية كل شيء يصمت ولا أملك غير الصمت ..
- ارتد ثيابك .. واحلق ذقنك .. سشور شعرك .. لمع حذاءك

لقد ضعفت يا بروين .. ضعفت وليس بمقدوري إلا الطاعة .. أنت يا بروين طفلتي المدللة التي تقف دوما في وجه أحزان العالم . ارتديت ثيابي كما أمرتني بروين .. حلقت ذقني .. سشورت شعري .. لمعت الحذاء .. وخرجت .. في الحادية عشرة صباحا وصلت العيادة .. دنوت من الباب المفتوح على مصراعيه .. رأيت بروين تجلس خلف الطاولة تدون أسماء المرضى .. وما إن رفعت رأسها حتى تركت كل شيء فجأة وهرعت إلي .. أمسكت بيدي وأجلستني إلى جانبها .. أين تختفي ..؟ ألا تحن إلى بروينتك ..؟ أأنت مريض ...؟ أين لحمك .. هل تدخن بكثرة .. ألا تأكل كسرة خبز واحدة .. سأعرضك على الطبيب وفتحت حقيبتها أخرجت مبلغا : انظر .. لقد قبضت راتبي .. نقودي كثيرة .. تصور ألف ليرة نصفها لك ونصفها لي .. خذ لا تخجل .. اعتبرني رأيتها على الأرض وكنت معي ..

أمسكت بيدي قادتني إلى غرفة المعاينة حاولت الامتناع ورأيتني وجها لوجه أمام الطبيب .

قالت : انظر إليه يا دكتور .. يخصني ..

سألني مجموعة أسئلة فأجبت عليها .. وبدأ يتفحص جسدي ثم قال لبروين : اعملي له تخطيطا للقلب .

أدخلتني بروين إلى غرفة صغيرة .. وصارت تعلق الأسلاك بجسدي .. كم كنت مرتاحا .. بروين .. ها هي تهتم بي بيديها المباركتين .. وقالت : انهض . فنهضت وخرجنا من غرفة المخبر .. تفحص الطبيب المخطط بإمعان وقال لي : قلبك سليم . أحسست بالتفاؤل .. كل تلك الاحباطات لم تؤثر عليه .. لقد كان بطلا وواجه المصائب دون أن يقع . وعدنا إلى غرفة الانتظار أجلستني بروين بجانبها : عليك أن تأكل جيدا .. وتولي الطعام أهمية خاصة .

- أحس بالنهاية ..
- تفأل يا طفلي .. هل تعلم أكثر من الطبيب المتخصص ؟..

لا .. لا شيء على الإطلاق .. نحن الآن في شهر تشرين الثاني .. وبديهي إحساسك بدوخة .. إنها مرحلة انتقالية طبيعي جدا إحساسك بالفراغ .. بسبب الجو الذي اختلف والأوقات التي تفرقت .. كنت تنهض في السابعة صباحا وأنت تعرف بأن ثلاث عشر ساعة من الضوء تنتظر الآن وقد برد الطقس فجأة .. قد تنهض في العاشرة صباحا ولا تخرج من البيت قبل الثانية عشرة بسبب توقفك عن العمل . سيكون قد بقي اقل من أربع ساعات ضوء .. هذا شعور طبيعي و أنت تمضي عشرين ساعة يوميا في الظلام في الشهرين القادمين ستكون قد اعتدت هذا التغيير .. أمامك الربيع ألا تريد أن تمرض قليلا الآن حتى تشفى في الربيع وتقطف الزهور لي من الحدائق الصغيرة .

وتقلب صفحات الكراس : انظر .. انظر .ز كل هذه أسماء مرضى .. يتوافدون بالعشرات .. لا يموتون .. عندما يموتون يبعثون من جديد .. الأمراض لا تنتهي .. كل واحد يورثها للآخر .. لقد تضاعفت الجلطة .. كل الناس يصابون بها .. عيادتنا لا تفرغ .. كان الله بعون الطبيب .. حتى الشبان أصيبوا بها ... لقد تمردوا على الحقائق العلمية .. العلماء يؤكدون أن الجلطة لا تصيب الإنسان قبل الأربعين ويصابون في الثلاثين .. وأنا أسير في الشارع أرى الناس يضعون أكفهم على قلوبهم ..

- وعرفت الأسباب ؟
- تسألني عن الأسباب .. حتى أغنام هؤلاء تصاب بالجلطة .. انظر إلى هؤلاء المرضى .. أنهم يغرقون في الجهل . من أجل قطف سنبلة يقتلون إنسانا .. ومن أجل ورقة شجرة يقتلون حيوانا والأب على خصام مع ابنه .. والأخ على عداء مع أخيه .. والشاب مع ابن عمه ..

والابن مع أمه .. يتشاجرون حتى مع أنفسهم فكيف لا تحدث لهم الجلطة .. هؤلاء " لا يموتون " إنهم " يقتلون " هل تسمعني .. أعرف أن العالم لن يخسر شيئا لأن الآلاف مثلهم " يقتلون " في كل بقاع الأرض .. ولكن هذه مأساتنا التي : نموتها " الآن في هذه البقعة المنسية من العالم . لنكن حذرين .. الحياة جميلة هي التي ستجيء إلينا .. أنت وأنا فمن يدخل الحياة مدخل سوء سيخرج منها مخرج سوء ومن يدخلها مدخل طيب سيخرج منها مخرج طيب . لا تنفعل .. العالم كله أنت وأنا .

- ياه .. يا للمأساة .. ألا يقولون أن الله ينفعل في مرات .. إذا كان ذلك له فمن أكون كي لا أنفعل ولا لحظة واحدة في الحياة .أريدك أن تتحدث بهدوء وصوت خافت فقط .

نحن نتحدث عن مرضى هذه المدينة الذي بات يقضي على أكبر شريحة مرعبة لا سابق لها في أي مكان أنا لدي تحليلاتي الخاصة في هذه التي أربطها بالانفتاح الاقتصادي مع عملية حفر الآبار الارتوازية لن أدخل بصورة في التفاصيل المرعبة لحرب الآبار الارتوازية فكان حالنا مثل حال الخليجيين عند اكتشاف البترول ولكن هذا ليس بترولا ولا ينعش كالبترول .. ماء فقط الذي وضع هؤلاء في هذه الدوامة .. يا للهول .. هؤلاء مفهومهم للاقتصاد غير ناضج لا يستوعب هذا الانفتاح فأصبحوا يأكلون بعضهم ولا يعيشون إلا في قلق واضطراب وتوتر في المرحلة الانتقالية المخيفة هذه .. انقلبت العلاقات الإنسانية .. لم يعد أحد يستمع إلى الموسيقى .. أغلقت صالات السينما كلها كل الأشياء الجميلة تموت .. لا أحد يفكر ببناء مسرح لا أحد يفكر أن يكتب قصيدة لحبيبته .. أي رجل فقير في أي حي شعبي ينتظر أن يزوج ابنته لمزارع أو ابن مزارع لديه آباره الارتوازية بمبلغ يعادل ما يتوفر من راتبي مدة مئة وخمسين سنة ..

ولكن ما يجعلني متفائلة هو ثقتي بأنها مرحلة مؤقتة ستنتهي بعد أن تكون قضت على المجتمع برمته مثل الحرب .. ولكن لا بد أن تنتهي .. أنا واثقة .. عندئذ ستولد بداية مشرقة من تلك النهاية المأساوية مرحلة حرب الآبار الارتوازية . لندع كل شيء الآن ونمارس الحب .. لتهطل من عيوننا دموع الحب .

- لندع كل شيء .. هذا مؤلم .. وهل نستطيع أن ندع كل شيء إذا توفرت حتى الرغبة .
- لا تكن كرجال الدين الأميين الذين يدفعون الآخرين إلى الاستسلام والهزيمة والتسليم لما يصيبهم .. توجد في الحياة تفاصيل لم نعشها بعد ، الحضارة في مرحلتها الأولى الآن .. لا تكن متشائما كأولئك الرجال الحمقى الذين يظنون بأن الحياة قدمت كل شيء .. وستنتهي بعد خمس سنوات أو خمسين سنة ، ويرعبون الناس بأفكارهم الملعونة التي لا أعرف من أين أتوا بها سوى أنهم يعجزون أن يقدموا شيئا يجدي .. شيئا يرفه .. يخفف من وطأة الألم وأشكال الاضطهاد .

نحن الآن نمر بمرحلة عصبية .. مؤلمة .. قبل مرحلة الآبار كان المجتمع في غالبيته ينتمي إلى طبقة واحدة متقاربة .. الطبقة الوسطى التي نعرفها جميعا وعشناها بأمان .. لم تكن هناك جلطات .. ولا سيارات .. ولا كل هذا الكم الهائل من الاشكالات التي أفرزت إلينا هذا العدد المخيف من المشافي والأطباء والعيادات والمحامين والأبنية الحكومية والمخافر والثكنات . كنا نعيش بهدوء .. ونستمتع بحياتنا .. الآن مضت سنوات فقط على الإنعاش الاقتصادي تقلب كل شيء وتفكك المجتمع .. انقسم إلى طبقتين .. طبقة عليا .. وطبقة مسحوقة .. وذابت الطبقة المتوسطة التي كانت تمثل الخير .. المجتمع ما يزال في الصدمة لقد قال لي الملا تنكه ذاته في هذا المكان بأنه كان سعيدا منذ خمسين سنة أكثر من هذه المرحلة

، وصور لي بساطة الحياة وجمالها وأيضا مفهوم الناس الصحيح للمال .. لم يكن أحد يولي المال أي أهمية .. وكانوا يخافون أن يصبحوا أثرياء وعندما يتأمل هذا التفسخ والانحطاط يلعن الآبار والمال .. إنه يستوعب ما حدث أكثر منا ولديه الحلول المناسبة التي تنفذ ما يمكن له أن يحدث من إشكالات مرعبة يتوقعها بيد أن أحدا لا يصغي إليه وهو أيضا لا يرغب في أن يتحدث في أماكن عامة ولا يفرض أفكاره على الآخرين .. المشكلة هو أيضا يرفض المجتمع مثلما يرفضه المجتمع . هل تسمعني هل أنت هنا .. هل سمعك معي . ثمة أشياء كثيرة تنتظرك .. في أي شيء تفكر .. التفكير مهنة العاجزين .. أن تفكر إذن تتحدث إلى نفسك بدون صوت ولو كان للتفكير صوت لكنت الآن في مصاف المجانين .. أي شيء تقوله لنفسك ألا تستطيع أن تؤجله .. أو تتوقف عنه لأنك بالتأكيد تعرف مسبقا ما ستقوله لنفسك ..

تدخل امرأة تحمل طفلا وتشير لبروين كي تحقنه .. تنهض وتأخذه إلى غرفة المخبر .. يطلق صرخة وتخرجه .. تناوله لأمه وتناولها الأم ورقة نقدية .. تدسها بروين في حقيبتها .. كان جدي قد تزوج أربع نساء ويعاشرهن في ليلة واحدة .. على نحو متواصل .. يخرج من فراش واحدة ليطلب على أخرى وكن ينمن في غرفة نوم واحدة ... فيبدأ من الكبرى لينتهي بالصغرى في آخر الغرفة .. وكان يدخن في اليوم ثلاث علب من التبغ التركي .. ورغم ذلك كان ضخم الجثة كالثور وعاش مئة سنة لأنه لم يكن يفكر بالتفاصيل .. لقد أخذ من الحياة كل حقوقه .. وأنت استمع إلى الأغنيات .. انظر إلى البنات الحلوات .. اذهب إلى الحدائق .. إلى السينما .. اسبح في النهر .. وكل جيدا .. ابتسم .. ابتعد عن التفكير .. اشرب الخمر .. وضاجع هالة .. أنا أعرف .. لا تخف علي .. ضاجعها .. لن ينقص منك شيء .. هالة مرنت جسدك على الشهوة .. مرة أخرى

أقول .. لا تفهم من كلامي اللامبالاة .. حتى الحيوانات يجب أن تعاني :" إذا حذفنا القلق والمعاناة من ضمير الإنسان ما علينا غير إقفال المساجد وجعلها قاعات للرقص " . أنسيت ما كنت تردده لي حينما كنت تعيسة بسبب عنجهية أبي .. أنسيت كلمات الأمل التي تطفح بالحياة .

- قولي يا بروين وأنا ألتقيك لماذا أغدوا أعظم جبان من الموت وعندما أبتعد عنك أبحث عنه .
- دع الموت جانبا وإن لم يكن منه بد فلنمت .

" لا كالخنازير التي قضمت وزربت في بقع مغمورة بينما تنبح الكلاب المسعورة الجائعة ساخرة من لعنة مصيرنا .. إن لم يكن من الموت بد فلنمت موتا نبيلا حتى لا يراق دمنا الغالي عبثا وعندها حتى الوحوش التي نتحداها ستضطر مرغمة أن تكرمنا رغم موتنا " .

- إذن عدنا إلى الحديث عن المتوحشين الذين يشوهون الأشياء الجميلة ..
- تحدث بخفوت .. لا أريد أن يسمعنا أحد ويشاركنا النقاش كلهم متعطشون للحديث . يخرج مريض من غرفة المعاينة تقرأ بروين النضج .. لا أحد مجرد من نزعة الشر والخير لا أحد مجرد من نزعة الخير . اسما فيدخل آخر .. لا .. لا ليست القضية على ذاك القدر من السوداوية .. كل إنسان يتعرض لمراحل مختلفة إلى أن يبلغ يمتلك الإنسان طاقة تؤهله لأن يكون وحشا . وأخرى تؤهله لأن يكون ملاكا من الرحمة .. وإلا كيف يكون بمقدور الشرير أن يغفر في آخر لحظة لا شيء يبرر قتل الإنسان لأخيه الإنسان بمقدورنا أن نتعامل مع طاقة الخير مع أي إنسان حتى لو كان شريرا في الأغلب ، ونخاطب طاقة الشر مع أي إنسان طيب . أعرف رجلا يتردد إلى العيادة وهو قريب الطبيب أو صديق عزيز لديه . يلقي علي السلام بتواضع وطيب وهو

يدخل غرفة الطبيب . ذات مرة صادفته في الطريق فتوقف يسألني عن الطبيب وفجأة ناداه صديق بأسلوب ساذج فارتبك وتلعثم وراح يبعد صديقه حتى اختفيا .. عدت إلى البيت وعرفت بعد إمعان مطول في الموقف بأن ذاك الصديق كان صديق طاقة الشر فيه .. ويتعامل معه من تلك الجهة فقط وأما أنا فقد اعتدت على التعامل مع طاقة الخير فيه فحدث التناقض والتصادم فاستطاع أن يحسم الأمر بمهارة حينما أبعد بيننا .. لقد حرص على الحفاظ على إيجابيته في معاملتي ولو حرصت على مناداة الرجل والتحدث معه أو الرد عليه .. ربما تغيرت إيجابيته وتحولت إلى سلبية مدى الحياة بالنسبة إلي .. وهذا ذاته يشير إلى تمييز الإنسان عن الحيوان . طيب بماذا تفسر موقف رجل كان لغاية البارحة يمقتك واليوم يعرض محبته عليك .. آخر كان لغاية البارحة صديقك والآن ينقلب إلى عدو لك .

أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا .. الحياة قاسية .. علينا أن نكون على حذر لأن الموت المجاني يكون بمثابة الانتحار .. وربما أقبح منه . يجب أن نغرق أنفسنا في العمل .. لا بد أن نلهي أنفسنا كي نحافظ على توازننا أستفيق صباحا .. يبصق أبي على وجهي .. فأغسله من البصاق ، أجيء إلى العيادة .. أبقى هنا حتى الثانية ظهرا ثم أعود مرة أخرى إلى البيت منهكة وجائعة .. قد أجد طعاما وقد لا أجد . أغفو لساعة واحدة وأعود إلى العيادة في الرابعة لأواصل العمل حتى الثامنة مساء وأرجع إلى البيت .. أغتسل .. وأسهر بجانب التلفزيون حتى الحادية عشر ليلا وبعدها أقرأ حتى الثانية عشر وأنام حتى السابعة صباحا . وأحيانا أيام الجمع والأعطال والأعياد أمضيها في القراءة .. أتهرب من الجميع أمارس حياتي بطريقتي الخاصة .. حتى أبي عندما يدخل ويجلس أعتبره وسادة

.. فقط وسادة .. لا أستطيع أن أصلحه لا أستطيع إيقاف الكون على قدميه ..
انظر فوقك لقد كتبت : "ممنوع التكلم بصوت مرتفع " . كانوا يتكلمون في كل شيء ويطلبون أن أدلي برأيي فوضعت تلك العبارة ، ومن يومها لا أحد يتحدث بصوت مرتفع .. عندما تقتنع أنك لا تستطيع أن تفعل شيئا عندئذ .. من الأفضل أن تكف عن المتابعة .
دخل رجل .. جلس قليلا وخرج .. ثم عاد وجلس وما لبث أن نهض .. جلس ونهض نحو ست مرات .. قالت بروين : منذ سنة هذا الرجل يتردد بشكل أسبوعي يجلس ويخرج .. أذكر أني قلت له في اليوم الأول :
أأنت مريض ؟
نظر إلي وتردد في الإجابة .
قلت : الاسم يا سيد .
بدا الخجل واضحا على شكله وخرج على الفور . ليعود في الأسبوع التالي يقف نصف ساعة ويخرج .. يتقدم إلي ليقول شيئا ثم يتراجع ويخرج .. ويعود إلى الجلوس ومع إني لم أكن أنظر إليه كنت ألمحه ينظر إلي .. لم يحسسني بأي إحراج لأنه يعاود النظر إلى الأرض ما أزال أشعر باختناق من أحد المرضى عندما يجلس ويغرز نظره في فأنهض إنها تشبه ثيابا ثقيلة ترمي بثقلها على جسدي .. وذات مرة جلست امرأة قبالتي وبدأت تغرز عينيها فيّ وفجأة اعتراني شعور مخيف فجفلت ورحت صوب الباب وما تزال نظراتها تلاحقني .. عدت إلى الجلوس ونظراتها عالقة فيّ كدت اختنق .. ارتعشت وقبل أن يغمى عليّ قذفتها بمجلة قديمة .. ودفعتها نحو الخارج .. لو لم أفعل ذلك لكنت الآن ميتة أو مصابة بمرض ساذج ...

الإخفاق العاشر

هالة تفقد هالتها .. تهبط إلى محتقنة ..
تقول : لم يعد يشرفني أن أعيش في مدينة كهذه .. سأنسى اسمها .. ولادتي فيها .. أظن بأنني سأكون أقل حزنا في مطرح آخر خارج أسلاك هذه المدينة .
سأبحث عني إلى أن أجدني .
إذا كانت الظروف أرغمت علي أن أولد هنا .. لكنها لا تستطيع أن ترغم علي الموت أيضا في هذا المكان .
- أخيرا يا هالة .. ستهربين حتى منك ..

ليتني كنت حشرة .. أي إثم ارتكبت كنت صغيرة .. راضية بطفولتي وحرماني .. ومدرستي .. لكن أبي أصر على خروجي من المدرسة فور حصولي على الوثيقة الإعدادية ، وأراد أن أكون ممرضة ..
رفضت وبعناد وتوسلت إليه كي يدعني أكمل دراستي :
سأقطع أذنك يا هالة

- لا يا أبي ..
- كلبة .. هالة ..
- من أجل تربة أمي ..
- أبوك على تربة أمك ..

ستخرجين وكلامي الذي خرج لن يعود يا وغدة .
اضطررت إلى ترك المدرسة والالتحاق بدورة تمريض في المشفى الوطني دامت ثلاثة أشهر تعلمت طريقة سحب الدم من الشرايين .. تعلمت تخدير المرضى وغرز الإبر في أجسادهم ، وارتديت صدرية " ملائكة الرحمة " ملائكة القسوة .. ملائكة الجحيم .. ملائكة الموت .. ومنحوني بطاقة عليها صورة لي واسمي وتاريخ ولادتي واسم أبي وأمي .. وقالوا : مبروك لقد أصبحت ممرضة يا هالة .. غدا ستعملين في عيادة طبيب وستنسيننا . حملت البطاقة وأخذتها إلى أبي أظهرته على البطاقة تناولها ولما وقعت عيناه على صورتي قال : أهذه صورتك يا هالة ؟

- صورتي .
- وصورتي .. ألا يعرفون أني أنجبتك ؟
- صورتك لم تعجبهم يا أبي .. لقد اكتفوا باسمك فقط اذهب إلى مدير الدورة و اشتمه ...

لم يشأ أن يلصق صورتك على البطاقة . مد أصابعه إلى أنفي وأخرج سكينا صغيرا من جيبه سأقطع أنفك .

- أنفي سليم في الصورة .. وسيبقى سليما حتى لو قطعته .

أعاد السكين إلى جيبه وقال : أقرئي .. أي شيء كتبوا .. قرأت البطاقة :

الاسم : هالة

اسم الأب : معمو

اسم الأم : خانم .

صرخ في وجهي : اللعنة عليهم اسمي \ معمي \ واسم أمك \ خانو \ لعنة الله عليهم ..

وأخرجني في اليوم التالي .. دار بي في العيادات والمشافي الخاصة وكلما دخلنا عيادة قال : ألا تريدون ممرضة .. لقد تخرجت ولديها بطاقة من الحكومة ..

كان يسأل المرضى والممرضات وكل من يرى .. ويبرز بطاقتي للجميع .. ولم نعثر على عمل .. كان أبي يشتمهم بصوت مسموع فور خروجه من العيادات ويمخط على البلاط عن قصد وأنا امشي أحسست بالمسؤولية لتوي .. عرفت .. لأول مرة أن لا أحد لنا في العالم كله .. أنا له وهو لي .. وأبي عاطل عن العمل لأنه مصاب بداء البواسير وطاعن في السن . تغيرت أحلامي وصرت أعيد النظر بكل ما خططت له منذ سنوات الطفولة .. لقد تحطمت كل تلك الأحلام أمام شراسة الواقع .. أحلم بجمع راتبي لمدة خمس سنوات وبذلك يتمكن أبي من فتح دكان في الحوش ويكون بمقدورنا أن نأكل كل أسبوع دجاجة .. بدأت جولتنا الثانية بعد الظهر ولم نفقد الأمل في العثور على عيادة بحاجة إلى ممرضة . قبيل المساء وقعنا على طبيب في إحدى المشافي الخاصة كان هو الآخر يبحث عن عيادة فوعدني بالعمل فور تسلمه مفاتيح العيادة في المشفى .. ولم

يطل الانتظار فبعد يومين باشرت العمل . كنت أدخل العيادة من السابعة صباحا ولا ينتهي عملي إلا في السابعة والنصف مساء .. واستطعت أن أجمع بعض المال كخطوة أولى .. فالراتب يبقى على حاله والمصروف يأتي من الحقن التي تأتيني في العيادة وفي البيت .. فعندما عرف الجيران أنني ممرضة .. بدؤوا يجلبون إليّ مرضاهم ويأخذونني إلى بيوتهم لأحقن المرضى كل ذلك ساهم في تحسين وضعنا الاقتصادي .. وجعل أحلامنا تكبر ووضعنا الصحي يتحسن . في إحدى الأيام وكان الجو مصقوعا والعيادة فارغة ننتظر مجيء أي مريض .. تناهى رنين الجرس .. فدخلت إلى الطبيب .

قال : ألم يأتي أحد بعد ؟

قلت : لم يأت أحد.

ورأيته يرتعش .. تلك الرعشة لم تكن بفعل البرد كانت تختلف عن الارتجاف وتشبه إلى حد ما الحالة التي تصيب المرء إثر جفلة مباغتة . ولم ألبث أن غدوت مثله .. وحرصت على التمسك بتوازني لكن جسدي ارتعش كريشة علقت بوجه عاصفة .. ورغم ذاك الارتعاش الكبير أحسست بصقيع في داخلي وغليان في معدتي ورغبة ملحة في القيء . تحرك الطبيب من خلف الطاولة : أدرت وجهي إلى الباب سبقني كفه إلى القبضة الملتوية وأقفلت الباب . ظننت قلبي سقط على الأرض إثر هبطة مفاجئة وعنيفة واصطكت أسناني وأخذت تصدر صوتا شبيها بخلخة براف في سيارة مهترئة شديدة السرعة ورأيتني مقرورة بين ذراعيه وبدت المقاومة مستحيلة .. زحفت يداه إلى كتفي ونزلتا إلى ظهري .. تهدلت عضلتا ركبتي .. لست امرأة غريزية أيها الطبيب . جسدي غض لن يحتمل كل هذه الإثارة دفعة واحدة .

دعني ... لست امرأة نارية ... توقف بحق الرب .. المرضى سيدخلون ،،، سيحطمون الباب وصار يلهث كثور قطعت أذناه . رفع تنورتي بيد وبيده الأخرى فك سحاب بنطاله ،، وكم تضرعت إليه ألا يفعل بي شيئا :
لا أيها الطبيب .. لا تحطمني لا تحطم أحلامي لا تسلبني حياتي في لحظة مجنونة .. وفي لحظة اخترقني كالسهم قاومت عذريتي ،،، تراجعت إلى الوراء لكنه واصل الاقتحام إلى أن مزقها واسترخيت . في تلك اللحظة أذكر بأنني شعرت بلذة ،،، ربما أعظم لذة وهبها إلي رجل وارتجف الطبيب لم أكن أعرف وقت ذاك الرعشة هدأ بعد الرعشة .. فالفيت الدم ينفجر بين ساقي إنه دم أحمر ، عرفت بأنه دم عذريتي الذي كان مخزونا وتمزعت تنورتي ، ورأيت بقعا حمراء على بنطاله الكحلي هرعت إلى الحنفية غسلت تنورتي وجلبت له الماء وعرفت بأن المرأة بقدر تتصدى لحركات الرجل وتنظر إليه بشراسة قبل أن يغتصبها .. تعطف عليه وتنظر إليه بشفقة بعد أن يتم الاغتصاب وتشعر بأنه أودع لديها شيئا ثمينا من روحه . لن تنسى ذاكرتي ذاك الموقف .. لقد انحفر كرتيمة على جدران الذاكرة مشهد العمر الأول . وضع عينيه في زرة الباب وفتحه قائلا :
لا أحد وعاد يجلس خلف طاولته .. نسيت أحلامي ،، نسيت دكان أبي .. الحلم وأصبح الشرود بعذريتي المفقودة هاجسا .. كانت كلمات أمي تلاحقني وتنصب في أذني كالحريق : " إذا مت يا هالة .. كوني حذرة .. عذريتك عذريتك . أوصيك بها يا بنتي . رأس مال البنت عذريتها إن حافظت عليها حافظت على كل شيء وإن فقدتها فقدت كل شيء " .
لقد فقدتها يا أمي .. فقدتها وخنت الأمانة التي حملني إياها الرب . لطختها .. سامحيني يا أمي .. سامحني أيها الرب الرحيم .
- اهدئي يا هالة .. تحثي بهدوء لتحسي بارتياح .

- كنت أحس بشبح يلاحقني ويعرض حياتي للدمار في أي لحظة غير متوقعة .. بت مضطربة وقلقة ومتوترة في جميع الأوقات .. أصبح الطبيب يداوم على هذه الممارسة معي ... لقد أحالني إلى عاهرة .. في تلك الأيام لجأت إلى الملا تنكه لأنه الوحيد الذي يتردد إلى أبي ورأيته الوحيد الذي يجب أن أشرح له كل شيء .. فقد ظهرت أعراض الحمل عليّ وانقطعت الدورة الشهرية لمدة شهرين متواصلين وتراخت نهداي .. صغرتا .. غلظ خصري ، فأخبرت الملا خلسة بكل شيء وقد أعانني في التخلص من الكارثة حينما ذهب إلى الطبيب وهدده بالفضيحة ، وأعترف بأنني مَدينة لتنكه بحياتي وأيضا للطبيب الذي لن أنسى معروفه وتعبه من أجلي حينما جاء وأقنع أبي ليتركني أسافر معه إلى دمشق .

وصدق أبي أن ثمة مهمة تنتظر الطبيب في دمشق ، وعندما أكون معه ازداد خبرة ، وسيمنحني مكافأة مادية جيدة فور عودتنا .

لقد وافق أبي على هذا السفر واتجهنا إلى دمشق في اليوم التالي .. هناك حجزنا غرفة وبرز كرم الطبيب فأخذني إلى المتحف الحربي وإلى السيدة زينب .. ودرنا في المرجة والصالحية وباب توما والأسواق العتيقة والجديدة وقال الطبيب : من يأتي الشام ولم يأكل كنافتها كمن لم يأت .

وأكلنا الكنافة الشامية اللذيذة في صحون \ عالواقف \ ثم عدنا إلى الفندق لنستخدم الأدوية التي ستنزل الجنين . دخلنا غرفة بسريرين وشعرت من خلال نظرات الطبيب أنه يرغب في مضاجعتي . استلقيت على السرير بفستان النوم الجديد الذي اشتراه لي . وتغطيت حتى كتفي بالبطانية .. على نقيض ما كنت عليه في المرة الأولى .. لم أكن أرتعش والطبيب أيضا لم يعد مثلما كان .

قال : سنعود بعد يومين

قلت : لا أريد العودة
قال : والعمل ؟
قلت : اعمل هنا ... وسأكون معك
قال : سنجيء كل سنة
ووقف إلى جانب النافذة : من يأتي الشام ولا يرى ليلها كمن لم يأت .
جلست على السرير ونظرت من خلف كتفيه إلى ليل المدينة الغامرة بالأنوار .
جاء صوته : انظري احتفالية الأنوار المنتشرة في الطرقات الهادئة .. منظر بهي . كان الليل يعني حياة أخرى غير التي شاهدناه في النهار .. مشاهد أكثر تألقا .. ليل الشام المسترخي في الأزقة الرطبة . وددت احتضان الشام كلها غمرت وجه الطبيب بنظرات فائضة .. وكان يتأمل الليل الذي يتمطى باسترخاء على الطرقات كعذراء خجولة على السرير ليلة الدخلة .. أدرت وجهه إلي وألقيت بجسدي في حضنه وغفوت بين ذراعيه حتى الصباح
ثم عدنا لأنه كان علينا أن نعود أخبرني أبي بأن رجلا جاء يطلبني للزواج وقد وافق عليه .
قلت : ما اسمه ؟
قال : بشير .
قلت : وعمله
قال : عتال في سوق الخضار ، هل تظنين سيطلبك مهندس
قلت : ولكنني لم أره
قال : عندما يتزوجك ستريه جيدا
أخذني بشير إلى غرفة في حوش صغير وقال : هذه ستكون لنا .. والغرفة الثانية لأبي .. لا أحد غيرنا هنا .. سيعجبك البيت .

نمنا على السرير وفي اليوم التالي احتضني من ظهري ورفع ثوبي
قلت : لا يا بشير .. ستؤلمني ..
ولم أحس إلا بحيوانه بين فخذي ...
- يا بشير كن مثل الناس
وأعلمني بأنه لا يستمتع إلا هكذا .. هربت من الفرشة .. ونمت في المطبخ .. لكنه جاء في اليوم التالي وضاجعني في المطبخ بذاك الأسلوب الشاذ ... بشير ... هذا الذي تسبب في تشرد شيركو ... سمعت عنه كل شيء منك فيما بعد .. كنت أحترق في جحيم البيت وأتناول الأقراص المانعة خلسة ودون معرفة معرفة بشير .. وأحيانا يدفعني الشعور الأعمق بالإثم إلى تفجير البيت بجرات الغاز .. هذا الزوج ما زال حتى الليلة يجلب الذكور ويضاجعهم على سريرنا الزوجي .. ولكنه طيب من الجوانب الأخرى لا يجادلني في أي شيء شريطة ألا أتدخل في مسألة شذوذه .. لقد أعطاني مطلق الحرية في شراء كل شيء .. ولم يحدث أن طالبني بالنقود .. إنه يعطيني وأنا أصرف ولم أجمع له شيء .. وهو أيضا لا يتحدث في هذه الأمور . وحتى الآن لم يشك بأي نوع من العلاقة بينك وبيني .. ولو رآك في غرفتي لا يمكن له أن يشك هذا الرجل لا يعرف الشك على الإطلاق فقط مساء يناديني إلى فرشته وفي الأوقات الأخرى ينسى بأنه متزوج . وكم مرة رآني في السوق حينما كنت أزوركما على العربة .. ولم يقف معي .. لم ينظر إلي .. عندما يعود من عمله ولا يراني .. ينام وعندما أعود لا يمكن له أن يسألني عن سبب غيابي . في أحد أيام شهر رمضان كان بشير في عمله وكنت مستلقية على بطني تحت مروحة السقف وفجأة صحوت إثر إحساسي بجسد على ظهري ..

قلت : بشير أنا صائمة .. لا تفطرني .. انتظر حتى المساء كان يرتعد ويلهث كثور بترت أذنه وأستطعت أن أميز بين ثقل جسد زوجي وعرفت بأن الذي يستلقي علي ليس بشير . في تلك اللحظة اخترت الصمت كان يمر بشفتيه على وجهي ورقبتي وشعري .. ولم يرفع ثوبي .. لقد لبث بثيابه ولبثت بثيابي وفجأة توقف عن الحركة ونهض .. ألقيت بنظرة أليه فخرج بسرعة دخل الغرفة الأخرى وأغلق الباب على نفسه .

دفنت وجهي في كفي وصرت أبكي إلى أن جاء بشير من العمل حاملا إلي شراب \ عرق السوس \ كي أفطر به نهضت وأعددت الطعام وجلسنا إلى المائدة الإفطار قبل الغروب بدقائق قليلة .. ومع أن بشير لم يصم بسبب عمله المضني .. وأيضا والده بسبب تقدمه في السن وآلام ظهر فانهما يأكلان معي .. نهضت لأصيحة كالعادة ورأيت الباب مقفلا من الداخل نسيت ما حدث في الظهيرة لان مجرد التفكير به قد يؤدي الى كارثة بين الأب وابنه .. لأكن الضحية الوحيدة المستورة أفضل من أن تتكاثر الضحايا وتذاع الأسرار .. والناس يبحثون عن حادثة ليتسلوا بها .. عدت إلى بشير وأخبرته بأن الباب مقفول من الداخل .

قال : هل زاره أحد ؟

قلت : لم يزره أحد

قال : هل رأيته في النهار ؟

قلت : رأيته .

وعندما ضرب المدفع لم أفطر بل اتجهنا إلى الباب المبهم خبطنا عليه صرخ بشير أبي .. يا أبي .. هل أنت نائم .. انهض يا أبي .. ننتظرك على الطعام .. هالة صائمة ستفطر . ولم نسمع صوتا لأبيه ، أشار إلي أن أجلب نسخة المفتاح الاحتياطية . فأحضرتها بعجالة وتبين بأن المفتاح وتبين بأن المفتاح الموجود من الداخل يمنع دخول المفتاح من الخارج

وهذا ما أكد وجوده في الداخل . عاد بشير إلى الوراء وتقدم بقوة وخبط الباب الخشبي بكتفه فانفلق على مصراعيه .. ويا لذاك المشهد المروع .. كان والده معلقا من رقبته بحبل مثبت بعمود السقف فأغمي علي ولا أدري ما حدث بعد ذلك . والبقية تعرفها .. بقية الاحباطات والآلام ومحاولات الهروب الفاشلة .. كنت أنت بطلها .

تركت هالة في الغرفة ورحت إلى الملا تنكه .. أخبرته ان يحضر ليزا .. وكليستان وبروين عند الظهيرة وقد حدث أن حضر الجميع بأقصى سرعة وصار على علم بقرار هالة المفزع اقترح الملا ان تخترق الحدود التركية ليلا وتعهدت كليستان وليزا وبروين بإمدادها بكل شيء لكن هالة رفضت هذا الاقتراح و أصرت أن تذهب الى العاصمة ومن هناك ستحاول الخروج إلى أي بلاد .. بعيدة وعلى الفور أعطتها ليزا قيراطا ومبلغا ضخما من المال لم نكن نتوقعه واعطتها كليستان سلسلة ذهبية ثمينة .. وناولتها بروين اسورة ومبلغا جيدا من النقود أما أنا وتنكة فلم نستطع أن نمنحها شيئا .. وفي المساء اجتمعنا ثانية وذهبنا جميعا إلى محطة القطار وعند الساعة السابعة تناهى صوت القطار فالقطار القادم من القامشلي يصل محطة الحسكة في تلك الساعة ويتجه على الفور للعاصمة .

الإخفاق الحادي عشر

بروين .. وأنت في العيادة . لا تكلمي الطبيب أكثر من لحظة واحدة . لا تثرثري مع المرضى ، لا تنظري إليهم أكثر من نظرة واحدة . وفي المساء ،، في المساء تعالي إلى الموقف .. لا تعودي سيرا .. انتظري مجيء السربيس الذي سيتأخر قليلا .. وعندما يقف ، لا تهلاعي .. ابتعدي عن الزحمة ، عن الشباب ، عن النساء والأطفال ، ابتعدي عنك واصعدي بحذر ، وفي موقف البيت انزلي بتؤدة .. انظري أمامك جيدا عند مفترق الطرقات . وأنت تدخلين ذاك الشارع المحطم قناديله كوني حذرة الخطوات .. علّ حفرة ما .. علّ حجرة ما تلكم بقدمك ابعديها عن دربك واكملي تحميك عيون الملائكة .
وفي الليل .. بروين لا تمدي رأسك من النافذة .. لا تقفي أمام الباب .. علّ رصاصة طائشة تأتي من ركن خفي .(فهل نعلم في أي صباح تكون الطلقة وأي قطرة تسقط وحيدة مرهفة في فجاءة الاحتمال) .
انظري إلى الأجواء .. إلى اللامرئيات .. فقط لا تنظري إلي .. اغمضي عينيك .. ابتعدي عني وكوني بقربي .. وهذا الجسد أبعديه عني .. هذه الجاذبية استأصلي جذورها إن ساعدتك لحواس .
بروين أتأكلين وتشربين وتنامين كالنساء .. أرضعتك امرأة ..؟ إذن لماذا لا تشبهين نساء العالم . أأنهض وأطفئ الضوء . أتحبين الألوان الخمرية الخافتة .. أتستحمين بنور مخملي .. حدثي الأشياء .. حدثي الباب .. النافذة .. الستائر .. الجدران .. بابي عاشق ..
نافذتي عاشقة
ستائري عاشقة
الجدران عاشقة ..

الباب يعشق النافذة ،
الضوء يعشق الستائر ...
الفرشة وقعت في عشق السرير .
الحذاء يعشق العتبة .. كل حيوانات الغرفة المرئية واللامرئية تمارس العشق بحضوري وغيابي .
انهضي أيتها القديسة ودوسي بقدمك المباركة على عضلة قلبي .. دوسي كما تدوس القديسات في زوايا الكنائس الصامتة .
دوسي كي يشفى .. دوسي كي تخاف التشنجات . دوسي بكعب قدمك المباركة ..
أي جلسة (بروينية)
أي نظرات " بروينية "
أي صمت بروين ثري يملأالغرفة
" تبروني " مارسي كل التفاصيل " البروينية "
أبدعي .. أيتها المرأة الرحيمة .. أبدعي يا طفلة الذئاب الجبلية .. بروني دمي .. دعيني أنظر إلى بنطالك الأسود الفاقع .. إلى قميصك الأبيض .. انهضي .. مارسي حركات عارضة أزياء خجولة .. توجي الطقس بتاج بروني .. ولن ترتوي غريزة النظر .. سأنظر إليك .. وأنظر .. وأنظر .. إلى ما لا ارتواء .. وأنت واقفة سأنظر وأنت جالسة سأنظر .. وأنت غائبة سأنظر ، وينساب شلال النظرات من قمة جبل مرتفع ..
بروين : أتحبين الرقص ؟
وتهمس بخفوت بروين يطرب الحيوانات الصغيرة الرضيعة .. مرة واحدة أخذتني توأمتي \ أفين \ إلى عرس .. وألحت علي كي أرقص .. وسحبتني إلى الدائرة الملتهبة .. وأنا أدخلها اعتراني شعور مخجل واعتقدت بأن الجميع يصوب أنظاره في ..

الكل تفرغ للنظر إلي .. وشعرت بالدوار والغثيان أردت أن تنفلق الأرض وتبتلعني ، وهرعت مترنحة تحت سياط النظرات .. انزويت ركنا متأملة الحسناوات الرشيقات يرتدين أأنق ما لديهن من ثياب ويتأنقن بدقة فائقة .. وينجرفن نحو دائرة الرقص النارية تاركات أريج العطور ينسحب خلفهن والمغني يتحرك وسط الدائر ويزيد الصخب صخبا بأغنياته الساخنة .. وأفين .. تتوسط شابين وتغرق في الرقص ناسية كل شيء .. يا لها من مشاهد مؤثرة .. فقط في تلك اللحظات بمقدورنا أن نبكي لأجل هؤلاء ..
لقد اكتفيت بالبكاء في زاويتي الخالية ، ولا أملك غير ذرف الدموع لدى حضوري مناسبات كهذه فهل ثمة أنبل من البكاء في المشاهد الانتقالية تلك . أبكي وأتمنى أن أغمر كل شاب وفتاة يرقصان بالقبلات .. لأنهم حقا يرقصون في دائرة قلبي . وقعت كفها في كفي .. أحسست بدفء العالم يتسرب إلى أعماقي .
قالت : لأجلك سأنسى خجلي .. لأجل لحظة سعادة واحدة تتسرب إلى أعماقك سأنفجر رقصا لك ، ولن يراني أحد .. سأرقص وأرقص ... ولأرقص بكل جوارحي .. لتعرف بأنني خزنت كل شيء لك ولهذه اللحظة .

* * *

بروين .. في لقاءات ملوثة يكون جرح الحب أغرز نزفا ... وأنا في كل هذا الإثم بمقدوري الحديث عن طهارة العالم ... أرى أبعادها تلوح لي من قريب وبعيد كما لم تلح لأطهر مخلوق .
كل أوراقي تساقطت .
كل الغصون تحطمت على أطراف السواقي الناشفة والجذور دودت . أجل أيتها المباركة .. أيتها الشجرة الكريمة .. شجرة التين .

لم أعد أترقب أي إعادة تشكيل .
أب لقاء آخر بمقدوره أن يعيدنا أطفالا
بروين خائف
خائف من أشياء كثيرة تتقدم إلينا
خائف منها إذا ما التقينا .. بروين اغفري لي .. سأحترم كل خطوة تبعد بيننا
.. أحترم كل لحظة أبحث فيها عنك
ولا أجدك

*   *   *

قبل الملحق

إنجيلا

لم أكن أصدق بأننا سنفترق بسهولة وأن الذي يجمعنا سيختفي .. وهالة الطيبة تهرب .. أجل منذ ثلاثة شهور اختفى فجأة بعد اختفاء هالة بشهر واحد ..
فأثرنا قضية اختفائه بين السكان الذين أعلموا السلطات المختصة بيد أنها لم

تأبه للموضوع فأرسلت صورته إلى جميع الصحف وإلى بعض الصحف الخارجية. وبنشر الإعلان عن اختفائه ظهر أهله وتدخلوا في الأمر بعشوائية ، وأرسلوا إلى الصحف معروضا يقولون فيه : " الاسم المنشور في الإعلان اسم ابننا الذي اختفى منذ عقدين لا شهرين – أما الصورة فليست له .. وإليكم الوثائق ". ثم فوجئت بهم يطلبون مني معلومات عنه فقلت : لقد اختفى .. وأنا أيضا أبحث عن معلومات أما الصحف فقد اضطرت إلى نشر الخبر مرة على الصيغة التالية : " على صاحب هذا الاسم أن يدل على مكانه الجديد أو يراسل أهله ليطمئنوا على وجوده حيا . هذا كل شيء " .

وانتظرنا أن يحدث ذلك بعد عودة أهله إلى قريتهم لأنه إذا ما وقع على الخبر سيعرف بأننا نشرناه وسيراسلنا بأقصى سرعة . وبين ساعة وأخرى تهتف لي بروين التي لا تعرف الهدوء .. والتي فقدت أعصابها فأقول لها لم يصلني شيء .

وتأتي كليستان .. فنذهب إلى بروين المنهكة ونصادف الملا بطريقه إلينا . فقط هذا الاختفاء جعلنا نكتشف سر علاقتنا الحقيقية به .. ثمة أناس لا نعرف مكانتهم إلا حينما نفقدهم . كل واحدة كانت تريده لنفسها بيد أنها لم تصارحه .. حتى علاقتي بكليستان كانت لإثارة عواطفه نحوي .. وأعتقد حتى الملا كان يريده لنفسه .. أجل أنا واثقة من شعوري .. كان يود أن يقفل عليه الباب ويحتفظ به لنفسه .

أترى سأراه مرة أخرى .. سأحدثه .. مثلما كنت .. لن أفقد الأمل .. لأنني إن فقدته فقدت اتصالي بالحياة .

ولن يبقى أي هدف لأواصل من أجله العمل .. لذلك أحس بسعادة وأنا أذهب مطلع كل شهر وأسدد أجرة غرفته الخالية إلا من رائحته .

ملا تنكه

ذهبت إلى معمو وقلت له : أستطيع أن أعيد هالة إليك .
نشج بمرارة وتوسل إلي أن أدله إليها : ابنتي يا تنكه أين هي الآن .. هل اعتدى عليها بشير ..
ذهبت إليه .
قلت : هالة اختفت .

قال : اطمئن ستعود .
قلت له : هل تعرف شيئا عنها ؟ ..
لم ينكر ، لكنه لم يدلني على مكانها .
قلت لمعمو : بشير عاقل .
أجاب وهويمخط : كيف ؟
قلت : يعرف مكانها ...
قال : سأقطع أنفه مثلما قطعوا أنفي
قلت : معمو .. كن عاقلا يا مجنون .. ابنتك هربت من الفضيحة ...
قال : أي فضيحة يا تنكه .. سأقطع أنفك بشير بأنها حامل من غيره .
انتفض معمو ، أخذ الدم الكردي يغلي في عروقه ..
واتجه إلى بشير .
كنت أعرف مدى صعوبة أن أطفئ النار بالنار .. وما ينتج من مهالك .. لكن بالمقابل كنت موقنا بأن ثمة أمراضا لا تؤثر بها جميع أصناف المهدئات بمقدار لسعة نار واحدة .
أو صفعة مفاجئة . لذلك استمررت في إبقاء الحديد على نار ملتهبة ولسع فخذ معمو بقسوة .
وما بثثته لمعمو كان مجرد حدس حول مكان هالة ورأيت معمو يستجيب لرغبتي الأخيرة في الحياة .. رغبتي في الانتقام من الجميع .. هذا كله حدث في خفية دون إعلام أحد بما أنوي فعله وما يدور في رأسي من مشاريع تدميرية تهدف إلى سحق جميع الرجال من الكرة الأرضية إلى أن يقتل الأب ابنه .. الجار جاره .. الأخ أخاه .. وسأكون سعيدا برؤية ضحاياي .. سأنشر الذعر والقتل .. فقط النساء سأحميهن .. النساء الصغيرات الجميلات ..
سأدافع عنهن .. حتى لا يبقى غيري وغيرهن .. أنا ونساء الأرض .. سأبعث حياة جديدة .. سأصنع جبلا واحدا .. في الطرقات لا أرى غير النساء .. فوق

الأسطحة نساء .. في المساجد نساء .. في الكنائس .. في الأبابيت .. في الجمع ... الأسبت ... الثلاثاوات ... الأربعاءات الأخاميس .. الأثانين .. الأحاد ... كم تريحني كلمة \ نساء \ وعندما أموت مخنوقا بأنامل النساء تغسلني النساء .. تحمل نعشي النساء وتدفني النساء .. نساء .. نساء .. نساء ...

ملحق

الصفعة الأولى

غيابك غصة لا تترك الحنجرة
طعنة أبدية في عضلة القلب
جرح لا يندمل بأدوية العالم
أي شمس كئيبة ستسطع على خرابي
بعد إنهيار الأعمدة الفقرية ...

بعد فساد الدورة الدموية
الطبيب يسألني عنك ماذا أقول له
المرضى يسألوني عنك ماذا أقول لهم
وأنا أسألني عنك ماذا أقول لي
كل شيء يدعو إليك .. يهرب رغما عني إلى حضورك
كل ما في يتهرب مني .. يجردني من أوردتي وشراييني مسبوتة تتلقفني الألسن
تتلقفني الأنظار
لا أحد في هذا العالم الصامت ينتظر قدومك بقدري قل لي كلمة واحدة : في أي ركن من العالم تقبع الآن ؟
ساعدني على الانتظار ...
ساعدك على الغياب
أي فراغ مدمر خلفه غيابك الذي لم يخطر ببالي ذات لقاء .

الصفعة الثانية

الأزهار التي كانت تزهر على شرفتي كل ربيع
ما عادت تزهر
والعصافير التي كانت تزقزق على شجرة بيتنا
كل صباح
ما عادت تزقزق

وديك بيتنا الذي يملأ الصباحات بندائه . فقد صوته
الذهبي .

الصفعة الثالثة

أتذكر يوم قلت لك : أعمل لأجل الآتي ٠٠ أتذكر ٠٠ ؟
اليوم أعمل لأجل الماضي ٠٠ الذي كان حاضرا ذات ماض ٠٠
أي شقاء هذا ٠٠ وأي بؤس ٠٠أنتظر أن يأتي الماضي ، أنتظر الماضي في
المستقبل .

لن أتحرك من حجرتي الكئيبة .. عندما تأتي كليستان وليزا لن أقابلهما .. لتقل لهما أمي : بروين جنت .. لم تعد لديّ رغبة في أن أكون عاقلة . وأي عقل هذا عندما يفقد الواقع اتزانه وصوابه ويصبح لا عقلانيا ٠٠ أي منطق يدعو إلى العقل والكل فقد عقله ٠٠ انفجرت صرخة بحجم العالم من أعماقي وشتمت المرضى ٠٠ مزقت أزرار سترة الطبيب . قذفت أسماء المرضى من النافذة ٠٠٠ حطمت المقاعد أي أطباء ٠٠ أي مرضى ٠٠ أي لعبة مكشوفة تركت العيادة للمرة الأخيرة ٠٠ تركتها غير نادمة ٠٠ ومشيت في الطرقات والغصة تكبر في حنجرتي ٠٠٠ أمشي وعيني لا تكف عن البحث ٠٠ كلما

أرى ثيابا تشبه ثيابك أهرع وأقول :

ها هو ٠٠

أرى مشية تشبه مشيتك

أهرع وأقول : ها هو ٠٠

أرى طولا يشبه طولك

أهرع وأقول : ها هو

وقفت في الموقف أنتظر ظهورك في أي لحظة غير متوقعة .

جاء سربيس ، لم أصعد ٠٠ علك تظهر

جاء آخر ، لم أصعد ٠٠ علك تظهر

فرمل آخر ، لم أصعد .. علك تظهر

لا ينتهي الانتظار ٠٠ أنتظر بعكس جميع المنتظرين ٠٠ عدم وصول السربيس

وكلما وقف سربيس هرع إليه الحشد ٠٠ وأهرب منه ٠٠

كم أتمنى أن تنفجر جميع إطارات السرابيس هذا اليوم .

الصفعة الرابعة

انتفظت الآن من حلم ٠٠ وانتفظت أمي ٠٠ لم أنم للحظة إلا واستفقت أنادي باسمك .
اصغ ٠٠ رأيت الناس في ذعر يهرعون في الطرقات نسوة حوامل ٠٠ أيامى ٠٠٠عجائز ٠٠أطفال ٠٠

وكنت بينهم تهب عليكم عاصفة صفراء شديدة قادمة من مكان مجهول ٠٠ وتمتد من الأرض إلى السماء كجدار من فولاذ ٠٠ تقترب بشراسة وعنفوان تقتلع الأبنية والمصانع ٠٠ والأشجار ٠٠ وتكنس الناس وكل ما يأتي في طريقها ٠٠ حتى أوصلتكم إلى جدار آخر وقبل التصاق الجداران لمحتك من قريب وصرخت ٠٠ ملأت الحجرة صراخا ٠٠ أخرستني أمي ٠٠ ولما نهضتُ .. صنعت لي إبريقا من البابونج ودست في مخدتي حجابا ٠٠ ثم عادت إلى النوم .

خائفة ٠٠ بردانة ٠٠ منهارة ٠٠ عاجزة ٠٠ الليل صامت كالمقابر ٠٠ إن دخلت لن يسمعك أحد ٠٠ تعال وحدي يقظة ٠

جاثمة ٠٠ كلي شوق ونظرات انتظار ذابلة

تعال ٠٠

مشتاقة عيناي

مشتاق قلبي

مشتاقة يداي

مشتاقة أذناي

مشتاقة بمجملي ٠٠

ألن تجيء كزائر الليل الخاطف وترشف معي رشفة بابونج لتزول هذه الغصة من حنجرتي ٠

الصفعة الخامسة

حزينة إلى آخر حدود الحزن
غارقة في بحيرة الحزن
لا شيء أمامي لأستمر من أجله
أنظار هؤلاء تخنقني
يتحول الموت إلى حياة جليلة

أتنتظرني في الموت ..
إلى آخر الجحيم سأجيء إليك حافية
يلزمها غسيل معدة
تذكرت بأنني تناولت علبة الأقراص \ ديازيبام \ الأقراص التي تصطحبك
إلى كل مكان ...
سيغسلون معدتي لمحو آثار أقراصك ..
بتلك الشراسة سيمحوك حتى من معدتي
وبعد قليل سيعيدونني إلى البيت ..
أيها الرب
إن لم تكن البداية بمشيئتي ألا يحق لي أن أضع نهاية ؟

الصفعة السادسة

إذا مت ولم أجدك
هل ستأتي ..؟
هل ستحمل باقات الزهور إلى مقبرتي

كل ليلة جمعة ..
إذا مت
هل ستسهر بجانب مقبرتي الصغيرة
حتى الصباح
إذا مت .. اعلم بأنني أنتظرك كل ليلة
جمعة كما ينتظر السجين زيارة مفاجئة
إذا مت ..
لا تدع قبري دون زيارة
لا تدع قبري دون زهور
تلك كل وصيتي إليك إذا مت
ولم أجدك .

الصفعة السابعة

مساء شوق وموت أيها الضائع أينما كنت
أغفر لي ٠٠ يوم قسوت عليك في الباص ٠٠
فعندما يجمعنا باص أحس بعدم وجود غيرك وغيري وأرى ملايين

الأنظار تترقب حركة واحدة منك ..
لفتة خاطفة مني .. لذا لم أرد عليك .. لأنك لا تشبه الآخرين .. ولا يمكن
أن أحسم اللقاء بكلمة أو هزة رأس أو مد اليد .. لا يمكن أن نلتقي لقاء عابرا
ونفترق ..
كنت منذ الولادة على موعد معك .. في الطرقات انتظرتك .. في الحدائق في العيادة .. في البيت .. على جرس الهاتف .. حتى وأنا في الفراش أحس أنني بانتظارك وأنك ستدخل في أي لحظة بكامل خجلك وحضورك وترددك .

الصفعة الثامنة

- ويا بنتي انهضي .
..أأنهض ؟
- ألسنة الناس التهبت
.. لا تحرقني

- شابة أنت .. سيضيع الشباب
.. أتأكل جيدا .. أسمنت ؟
- ارجعي إلى عملك في العيادة
.. هل عدت .. أزرت العيادة والممرضة الجديدة أذكرتك بي
أقالت لك : بروين جنت
أعرف يا خجول .. ستتردد كثيرا أمام الباب وعندما تدخل ولا تراني .. ستنظر إلى مكاني وتقول : هذه الطاولة قبعت خلفها بروين .. ذاك الكرسي جلست عليه بروين .. ذاك القلم حملته يد بروين .. وتلك القبضة الملتوية أدارتها كف بروين .

- تكلمي يا بنتي .. الصمت أسلوب الحمقى .
- ألديك ثمن سجائر .. أمفلس كعادتك تعال خبأت لك مبلغا في أحشاء المخدة .
- حتى وجهك تغير يا بنتي
- غدوت أشبهك .. الطعام بات سما لن تطيقه معدتي .. لا يدعوني بحالي .. اصمت لا تفه بحرف .. أعرف ما تود قوله وأنت تنظر إلي .

نظراتهم تترجم إلى كلمات في أسماعي
وأمي تلك القابعة دوما إلى جانبي أعرف ما يدور في جمجمتها .
ليتهم عرفوا أن وجهك يملأ كل زوايا الغرفة .
كلماتك تشتعل في السقف ..
تحيل صمتي الطويل إلى حوارات ثرية ..
ليتهم عرفوا أنك تحتل كل هذا الحضور
في فراغي وأنك ترفرف كحمامة في سماواتي
تعوم كسمكة في مياهي ...

ليتهم عرفوا ...

الصفعة التاسعة

عندما أستمع لأغنية جميلة
أود أن اتجه إليك.. لتسمعها معي
عندما أرى صورة جليلة ،
أود أن أطير إليك.. لتشاهدها معي
عندما نطهو طعاما شهيا ،

أريد أن اخفي لك قطعة
لتأكل معي
وعندما أكون في غرفتي بمفردي .. أود أن تكون في غرفة الضيوف ..
لأمد رأسي كل لحظة والقي نظرة إليك .. لأميز صوتك .. واختلس كل
ما تقول ..
وعندما أحس بوحدة احن إلى معك .
احن إليك معي .
جديد قلبي على العشق
جديدة عيناي على السهر
لم اعرف الاحتراق إنها المرة الأولى
صغيرة أنا.. طفلة على المواجهة ..
أتعرف لماذا تتحد الألوان كلها في لا لون
لماذا تشنجني الأشياء الجميلة
أتعرف سبب هذا الانجراف المهلك إليك
اجبني بحق هذا الانتظار .

الصفعة العاشرة

أحلم الآن بأخذك إلى قمة جبل مرتفع نقف هناك ولا يصلنا أحد .
أمد يدي إلى شعرك .. أسحب .. تتأوه يوجعني قلبي أتركه .
أمد يدي إلى خدك .. أسحب .. تتأوه يوجعني قلبي .. أتركها .
أمد يدي إلى شفتيك .. أسحب .. تتأوه يوجعني قلبي .. أتركها .
أختلس نظرة ثرية من السماء وأتراجع ..

أتراجع .. يتهاوى جسدي من قمة ذاك الجبل المرتفع وأملأ الأفق باسمك .. أحسدك لأنك احتملت كل الاخفاقات ، يكفيك شرفا أنك تحملت بكل قسوة سلبية الواقع الذي عشته وستكون شاهدا على طغيانه ولا عقلانيته .

الصفعة الحادية عشرة

اليوم صباحا ظهرت شعرة بيضاء في رأسي ..
داعبتها ..
أخفيتها تحت الشعر كي لا يراها
أحد قبلك ..
كم أريد أن تراها ...
أن تلامسها بكفك

رائحة منك .. هذه الشعرة البيضاء
ذكرى لا تمحى من مياه أحزانك التي طالما روتها .. حتى وإن قطفوها ..
ستظهر ثانية ..
متعلقة بها ..
حريصة عليها
هذه الشعرة التي غرسها غيابك هذا الصباح شعرة الشوق المباركة .

الصفعة الثانية عشرة

كل عام وقلبي لك
كل عام ونبضي لك
كل عام ودمي لك

كل عام وحبي لك
كل عام وانتظاري لك
كل عام وعمري لك
كل عام وروحي لك
كل عام وجسدي لك
كل عام وكلي لك

الصفعة الثالثة عشرة

مشغولة بالفراغ طوال الوقت
مشغولة بك
لا لحظة تمر دونك
منك لا أستطيع أن أرتشف رشفة ماء
لا شيء غيرك .. لقد استوليت على كل أوقاتي ..
ألا ترسل إلى فراغي يدك الفارغة

لأضع فيها قبلة صغيرة مثل عش عنكبوت
وأعيدها في ظرف مختوم .
ثمة مخلوقات لا مرئية تبرك بجواري
أراها .. أحدثها .. وتحدثني .. هل تراها .. العزلة الحقيقية التي يبلغها الإنسان هي شعوره الأعمق بأن ثمة أشباحا تبرك معه بكل تأكيد .
تلك الحجرة أزحتها عن طريقي
تلك الحفرة دممتها
عندما ألتقيك .. الآن .. بعد لحظات ..
لن أقول شيئا .
وحدها الحواس ستشتعل وتمارس العناق
بكل ما أوتيت من حرارة وتوق
سترتفع يدي
وترتفع يدك
سيهبط قلبي
ويهبط قلبك
سترتسم بسمة على ثغرك
وترتسم بسمة على ثغري
ستقول عيناي : لماذا تبتسم ؟
تجيب عيناك : لماذا تبتسمين ؟
وأضحك ..
تقول عيناك : لماذا تضحكين ؟
تجتب عيناي : الضحك يضكني
في تلك اللحظات سيكون بمقدور عالم جديد أن يعلن ولادته .

الصفعة الرابعة عشرة

اليوم دخل أخي الغرفة ولم يطرق الباب .. لم يحترم استلقائي في فرشتي .. لم يمهد لدخوله ثمة أناس نشعر بحقارتهم منذ النظرة الأولى وآخرون نتحسس طيبهم أيضا منذ نظرة واحدة .

هذا الرجل خلق ليزعجني .. ليكون عذابا في حياتي جاء ليسبب لي الأمراض النفسية والعصبية ألا يكفي أبي .. أي قلب سيحتمل النيران من جميع الجهات .. الكل يواجهني .. وكأني جئت من عالم آخر .. هكذا ثمة أناس خلقوا
ليزعجوا الآخرين
ليتسببوا في خلق الأمراض النفسية والعصبية للآخرين .
انقض علي : انهضي يا قردة .. اغسلي وجهك رائحتك لوثت البيت .
وتركت الغرفة .. دخلت الحمام . استلقيت تحت الماء
فتح الباب ودخل .. لم انهض ولم أرتد ثيابي .. لبثت تحت الماء .. وهو ينظر إلى جسدي .. لم أمنعه .. تركت جسدي لعينيه كما هو .. لقد خنتك .. خنتك ... أظهرت جسدي لغيرك ... أتسامحني .. ارتكبت خيانة بحقك .. افعل أي شيء يرتقي إلى مستوى خيانتي كي أحس بتوازن \ خياني \ كلما تذكرت المنظر .

الصفعة الخامسة عشرة

أجساد قريبة ... غريبة .. مألوفة ... تتسرب إلى أركان الدار :
أصوات متحشرجة .. متزنة ... قهقهات ... نظرات ترمق الجدران .. الرف تدور .. الوليمة وأنا بطلة الوليمة .. بطلة حبلى بعماماتهم وذقونهم وكروشهم ومسابحهم . هؤلاء أتوا يوم تزوجت توأمتي \ أفين \ والآن عادوا .. رجال

المناسبات .. رجال الأحداث لا يظهرون إلا في الأحداث وكأنهم خلقوا للمناسبات . رائحة المناسبات تفوح من وجوههم وثيابهم سيأكلون ويشربون ويثرثرون .. وعندما يفرغون سيديرون أقفيتهم ويختفون .. يعودون إلى بيوتهم يتحدثون لزوجاتهم النائمات عن طقس الوليمة .. عن أحاديث الوليمة ، عن بطلة الوليمة وعنهم في الوليمة .

الكل يزدريني .. يود التخلص مني وأنا ثقيلة عليهم ...

تقول أمي : كل هؤلاء جاؤوا من أجلك .. يا بنتي لا بد من الزواج .

- أنا دائخة يا أمي .
- يا بنتي كل رفيقاتك تزوجن ... انجبن ..

ابن خالك مسكين .. سيشفيك من هذه الوساوس .. يدخل أبي حافيا ويفجر حقده القديم : ستتزوجين يا كلبة .. لن نحتمل عذابك إلى يوم الدين .

ويهبط أخي : ابن خالنا طيب .. هو الذي يخسر لأنه رضي بالزواج من مهووسة. سنزجك في العصفورية ..

ويدخل ابن خالي : بروين .. لقد رضيت أن أتزوجك ... بشرط أن تكوني مثل خادمة .. ولا تجادليني في أي شيء .. هذا اللسان اقطعيه قبل أن تدخلي بيتي ، أما اللسان الجديد فأنا سأزرعه منذ هذه اللحظة . أبصق في وجهه تأويهة مخزونة :

ألف ليلة من العزلة القلق أهون من قضاء ليلو واحدة مع من لا أحب .

يسخط أبي .. يثور ابن خالي .. يلهث أخي .. وتولول أمي .. أبي داس على رأسي .. وأخي يركل جسدي .. ابن خالي ملأ وجهي بصاقا ... والضربات تنهال علي كرحمة الله . ولا أملك إلا الاستسلام لها .. سأصمد .. جسدي بحاجة إلى ضربة ليصمد .. إنه الدواء ..

شكرا على هذه الرفسات التي تعيدني إلى صوابي .. تعيدني إليك . تكبر الغصة في حنجرتي .. والأقدام تمارس الركل بتلذذ .. تنسد حنجرتي

وتنحبس صرخة ملغومة بحجم العالم .. والخبطات لا تميز العين .. من الفم .. من الأنف .. من البطن ..
وتنفجر بقعة حمراء في حنجرتي .. وينسال الدم بغزارة ..
أمي تشد شعرها وينزف الدم
أبي يخرج وينزف الدم
أخي يهرول وينزف الدم
الناس يتفرقون وينزف الدم
ينزف الدم .. ينزف الدم ... ينزف الدم .

الصفعة السادسة عشرة

غدوت علكة سوداء لصقت بثوب أبيض في هذا العمر كان علي أن أغدو أما فعلى الدجاجة أن تبحث لها عن ديك يلحقها كي تبيض وتفقس وإلا ذبحوها وقذفوا لحمها للقطط الجائعة . أتحب الدجاجات .. أأنجب لك صوصا .. أعرف بأنني أضايقك بعباراتي ماذا أفعل لا أحد غيرك لأحدثه .. لا أحد غيرك يسمعني .. ألا يحق لي أن أتحامق عليك . أفين وحدها تزورني بعد الحادثة المروعة .. بعد أن توقف النزيف . وحدها تسليني لساعات لكنها لا تستطيع أن تبقى معي حتى الصباح خوفا من زوجها

اسمع هذه الحكاية التي ترويها لي أفين .. ونحن نتسلى تتحدث عن زوجها تقول بأنه لا يسمح لها أن تبيت ليلة واحدة خارج البيت إلا في الأمور الطارئة . فتستفزه أفين ، بعد مرور شهرين على زواجهما بدأت في ممازحته لأول مرة عندما كانت واثقة بأنه ما زال يقظا في الفرشة .. خرجت من الغرفة اختفت في أحد الأركان الخفية من البيت .. لبثت نحو ساعة .. فخرج زوجها يصيح .. دون أن يسمع لها صوتا .. ثم وقف أمام النافذة يلقي بنظرات فاحصة بين الظلام . عادت إلى غرفة النوم واستلقت تحت السرير .. فعاد هو الآخر إلى غرفة النوم وارتدى ثيابه وبصورة مفاجئة رأته يهرع إلى الخارج ... نطت أفين إلى النافذة ورأته يطارد حمارا واستلقت على السرير من جديد . وعندما سمعت وقع خطاه تظاهرت بالنوم قال فور دخوله : أين كنت منذ ساعتين ؟ لم ترد .. كان مظهرها يوحي بأنها نائمة منذ خمس ساعات . وأمضى الرجل ليلته يفكر بالحدث وعند الصباح رمقها بنظرات مريبة لكنها أوحت إليه بأنها لا تعرف أنه يعرف ما وقع ليلة البارحة . شجعته على مراقبتها وحرضته على استئناف شكوكه . وصارت الليالي والأيام تمضي وهو يحترق بصمت وتوحي بأنها تجهل معاناته فعندما يطلب منها حاجة تذهب ولا تجلبها إلا أن ينهض ويتخطى أثرها .. وأحيانا تختفي فجأة .. يصيح .. يصرخ .. يبحث عنها في جميع الغرف .. وعندما يذهب إلى الحمام يراه مقفولا . يقول : أأنت في الداخل ؟

فيدفع الباب بقوة ويحطمه .. فيزداد اشتعالا عندما يراها نائمة في الحمام .. فتتهمه أفين بالجنون وبذلك تستطيع الهروب إلينا وتقول لأبي .. لقد جن يا أبي وصار يحطم الأبواب وينهض في الليل .. يدور في الشوارع .. وتمتنع عن العودة إلى البيت .. فيأتي متوسلا إلى أبي كي يسمح بأخذ

زوجته بعد أن يعده بعدم النهوض من الفرشة ليلا وعدم تحطيم الباب ..
ومن الطرف الآخر ..
يزورني زوجها ويتوسل إلي لأقدم نصيحة لتوأمتي لأنها قد تسمع كلامي لكوني تشكلت معها وكنا صديقتين في بطن أمي .
يقول لي محاولا شرح موقفه : لنفرض يا بروين يا أختها الكريمة كل شيء كان واهما .. لتعد إلى البيت .. أي شيء تصنعه هنا ، أحيانا أجيء إلى بابكم في الثانية ليلا وأتردد في الدخول .. لقد كنت أحمقا ، أنا أعتذر عن جميع تصرفاتي السابقة لأن أختك مخلصة وتريد الحفاظ علي .

- كيف عرفت ؟
- لقد زارني ساحر وأخبرته بأن زوجتي توسلت إليه وأعطته خاتمها حتى يتمكن من تقديم شيء لها .. لأزداد تعلقا بها وأعلمني بأنه أعطاها حجابا .. ولكن علي .. أن أحافظ على إخلاصها لي .. وعندما عدت .. بالفعل رأيت الحجاب في جوف وسادتنا .. ومرة رأيتها تضع لي نقطة من دم الحيض على بنطالي .. لأزداد حبا بها .. وأيضا وضعت لي دم الحيض في الطعام .. كل هذه الحركات توضح للأعمى بأنها تجاهد من أجل الحفاظ علي وتعرض نفسها لضياع الجهد والوقت والمال ألا تخسرني .
- فأقول : أنس يا رجل ، أنس ، المرأة خلقت من ضلع أعوج كما يبن الرسول ، فإن حاولت تعديلها انكسرت ، والأفضل أن تنسجم مع هذا الاعوجاج .
- انس يا رجل كل هذا ضياع للوقت لقد سمي الإنسان إنسانا لأنه ينسى . لا تدع (تعب خلف يذهب تلفا) عليك أن تصطبر وتحتمل حماقة صغيرة كهذه من امرأة جعلت نفسها خادمة في بيتك لك ولأولادك

مدى العمر . احتمل وهي التي تصطبر على حمل طفلك في بطنها تسعة شهور .

وأقول لأفين : أسوء ما يحدث للمرأة هو أن يطلقها زوجها .. إنها أسوأ الوقائع .. عندما تطرد من بيتها بطريقة شرعية .

على المرأة يا توأمتي أن تتمتع بالصبر أكثر من الرجل لأن التي تبدي استعدادا على حمل جنين في بطنها تسعة أشهر وتصطبر على كبره تستطيع أن تحتمل حماقة من والد ذاك الطفل وبمقدورها أن تغفر أيضا حتى وإن ارتكب خطيئة كبرى .

إن الله يغفر ، فمن نكون كي لا نغفر .

لقد تعلمت من أفين أن با ستطاعة المرأة أن تدخن الرجل وتحرقه كما تحرق سيجارة ، وبمقدورها أن تبنيه كما تصنع رجلا نطفة لو شاءت ، ولو كانت كل الظروف ضدها .

ثمة شيء آخر أود أن أضيف لك وهو أنني الآن أتفق معك بأن المجتمع الذي ننتمي إليه يعاني ثلاثة أرباعه من الازدواجية ، وأنه بالفعل بات يشكل خطرا على هويته ووجوده ، الشعوب لا تُفنى ولا يمكن لها أن تُفنى حتى لو تعرضت لعواصف العالم كلها ما دامت تواجه ، ولكنها تـُفنى عندما تريد أن تفنى ، فتفني نفسها بنفسها .

الشعب عندما يبدأ في هذه المهمة فإن التفاؤل لا يكون في مطرحه ، حتى الحيوانات لا تتعرض للفناء مهما كانت ضعيفة أو قوية ، ولكنها تتعرض للانقراض عندما تنهش بعضها لحوم بعض . هل سمعت قطة تنهش لحم قطة ؟!

الآن باتت القطة تنهش لحم القطة على مرآة من الذئاب التي تسخر وتبتسم بسخرية لهذا المصير .

الحدث المرعب سيجعل المسؤولية الأخلاقية في أعناق المجتمعات التي تعتبر أنفسها واعية .. ففي النهاية حبل الإنسانية يجمعنا ويضعنا عند نقطة واحدة .

تعلم جيدا أن المريض لا يستطيع أن يعالج نفسه بنفسه .. وهو في مرحلة المرض يكون بحاجة إلى عون أكثر منه في حالة عافية .. لأن الإنسانية بروحها العالية والسامية تجمعنا جميعا في آخر المطاف
نحن سكّان الكرة الأرضية .

الصفعة السابعة عشرة

أجمل الساعات التي تمر بي هي تلك التي أستلقي فيها على بطني وأدس وسادة تحت صدري وتحتها علبة الدخان . فأحط إبريق الشاي بجانب آلة التسجيل وأبدأ في الكتابة إليك حتى أغفو .. وأنا أعرف أن لا جدوى من ذلك .. ولا عنوان لديك لأرسل إليه ما أكتب .. لكن لن أفقد الأمل للحظة واحدة حتى ولو كان الأمل سرابا .. سأستطيع أن أحيله إلى واقع إن شئت وأصررت ، الآن سأحدثك عن أبي بعد أن حدثتك ‘ن أختي وزوجها وأمي وأخي وابن خالي .. هل أنت مستعد ؟ إذا اصمت وأشعل سيجارة معي ..
أبي ويا أبي كاسف الوجه دوما والعبوس سمة تميزه عن غيره .. عندما يتكلم لا يعرف بداية .. الكلمة الأولى لا بد أن تكون شتيمة حتى لو مس الموضوع الشجرة أو القطة أو الباب .
أما في رمضان فإنه لا يشتم طوال النهار .. لأن " الفقيه " قال له : " الصوم لا يعني التوقف عن الطعام والشراب بل عن الكذب والشتائم .. مثل الذي يشتم مثل الذي يدخن سيجارة وهو صائم " فينتظر الغروب ويخزن شتائمه

إلى أن يسمع الآذان لتخرج كل تلك الشتائم على دفعات ولا يفطر إلا بشتيمة .
أين الماء يا أولاد الكلب ..
أين الخبز يا منافقة ...
وطالما يردد لأمي كلمة : فاجرة وابنة حمار.
معاملته هذه لم تقتصر علي فحسب وطالما سمعته يصف أختي أفين بأسوأ الصفات والحيوانات الضارة . إن أبي ظلم الكل حتى الضمير والأبوة والمشاعر الإنسانية ، ومن المحزن حقا أن أمي وقفت إلى جانب كل خطوة من خطوات الظلم هذه .
هذا الرجل لم يفرحنا ليوم واحد في هذا البيت .. لا أذكر ساعة واحدة جميلة لأقول : ليت تلك الساعة تعود .
لقد حطم كل الأشياء الجميلة التي كنت أحلم بها في سنوات طفولتي الأولى .
أتذكر يوم تحدثنا عن المؤثرات التي تغير الإنسان ؟
أتذكر يوم قلت لي : لاأحد بمقدوره أن يغير أحدا .. فالناس سيتغيرون عندما يشعرون برغبة داخلية نحو التغيير ، عندما يعترفون بفساد الجذور ويعملون بالمثل القائل : " دودة الشجرة منها " .
تلك الرغبة تكون كامنة في أعماقهم ودورنا لايتعدى سوى جر الخيط لتنفجر القنبلة وتقذف القذارات المتراكمة لتولد تلك الشخصية الجديدة من الركام ، لكن أمثال أبي لايخضعون لذلك لأنهم ليسوا على استعداد في الأساس لتغيير كهذا ، لقد ولدوا ليراوحوا في المكان ، ولايستطيع الكون كله أن يدفعهم خطوة واحدة نحو التغيير ، وسيعجز الفكر البشري إلى أن يصاب بالشلل إزاء هؤلاء .
وكثيرا ما أتساءل : من وضعه على هذا العرش ليعبث بنا بهذه الوحشية ؟!

ثمة أفكار تحرضني على الكلام ، ولا أجرؤ على البوح بها لأحد لأنهم لو سمعوها لما ترددوا في إزعاجي بنحو أقسى مما هو عليه .
الآن ، فمثلا : ماذا يعني الأب ؟!!
أهو يدي مثلا ، قدمي ، وجهي ، عيني .
والأم ، ما صلات القربى بيننا ؟
وابن خالي الذي يكون ابن أخ المرأة التي تسببت في إنجابي ؟
وأخي الذي صدف أن نزل من البطن الذي نزلت منه ؟!!!!
لنمعن النظر .. : هل هذه مقاييس لتبادل الحب والعطاء والإحترام بين هؤلاء .
لنجعل الآن مقارنة بين نموذجين في أسرتين ، واحدة أبوية ، واخرى غير أبوية ، أي سأقارن بينك وبين أفين .
أفين مورست عليها سلطة أبوية ، أليس من المغالطة أن نعتقد بأن أفين القادمة من سلطوية عنيفة ستخجل مكن ممارسة السلطوية ذاتها على من تتمكن منه !!
البارحة جاء ابن خالي ولعب الورق مع أخي في حجرتي ، كل واحد منهما كان مصرا أن يغلب الآخر ، علما بأنهما لم يلعبا على رهان .. كان اللعب مجرد تسلية ، لكن لمذا هذا الإصرار على أن يغلب أحدهما الآخر ؟ هنا كان كل واحد يعوض تلك السلطة التي مورست عليه ليثبت بأنه كبر واستطاع أن يتفوق ، وبالتالي أن يمارس السلطة على المغلوب ، ولو عن طريق النكتة أو المزاح ، أو عن طريق البوح للآخرين ولو بعد سنوات .
الآن سأثرثر أكثر وسأشعل سيجارتي التي انطفأت ، فالأب والإبن والعم والخال والأخ ، وأبناء هؤلاء ، وأبناء بناتهن ، سيشكلون عصبة ، كيانا مستقلا في المجتمع ، ولهذا الكيان سلطانه وأفكاره وحدوده ، وكل فرد من

هذا الكيان سيكون مسؤولا عن أي خطأ يرتكبه غيره ، فلو تشاجر ، تشاجر الكيانان .
إن الخطورة تكمن في لغة هؤلاء الواحدة ، وفي أهدافهم الواحدة .
لقد تسنى لي أن أختلس النظر من غرفة أبي .. الغرفة المجاورة لغرفتي ..
كان أبي جالسا على صابونتي ركبتيه كمن يصلي ، وإلى جانبه تستنيخ أمي كخادمة درداء غلبها النعاس وحولهما رزم بأعداد هائلة من أوراق نقدية ناصعة البياض ، وبمحاذاة الرزم علب فارغة فاغرة فاها .
بهذه النقود يمتص دماء الناس من حوله .. إنه يخفي النقود إلى شهور ما قبل الحصاد ، وقد ابتكروا وسيلة جديدة للاستغلال والجشع ، فلا أحد يساعد أحدا إلا بمقابل ، وعندما يأتي رجل ويطلب مبلغا يعيل به أولاده ، أو يعالج أحدهم ، لا يعطيه أبي ويستغله قائلا : بعني طنا من القمح منذ الآن .
يقول الرجل : كيف ؟
يجيب أبي : سأشتري الطن بسبعة آلاف ليرة .
فيقول الرجل : ولكن الحكومة تشتريه بأحد عشر ألفا
يجيب أبي : هذا بعد ثلاثة شهور .. انتظر
يقول الرجل : لقد بعتك .. ا'طني قيمة عشرة أطنان .
ثم يبتسم وهو يعرف بأنه باعها بسعر يقترب من التكلفة مجبرا .
يقول أبي : اكتب لي سندا ، وسأعطيك سبعين ألفا قيمة عشرة أطنان قمح .
عندئذ يكتب الرجل سندا بقيمة مئة وعشرة آلاف ليرة يقول فيه بأنه استلم برسم الأمانة هذا المبلغ كاملا ، وأنه سيعيده إليه فور الطلب .
إنهم يكذبون في كل شيء ، يكذبون حتى على أنفسهم على أن هذا الكذب حقيقة .

والمشكلة الأخرى عندما يأتي رجل آخر ويأخذ من أبي بذات المواصفات ، ولا توجد لديه مزروعات ، فيوهم أبي نفسه بأن الرجل لديه أرض وآبار ارتوازية ، ومثله الرجل .
لقد تخلوا عن كل شيء ، تجردوا من التكاتف الإنساني ، وهذا يسبب لي الحزن الشديد والحالات النفسية المخيفة التي تسيطر علي ولا أجسر على مقاومتها .
أمي ترتب الرزم وهو يعد الأوراق بشفتين مزمومتين ووجه كظيم ، والأرقام التي توحيها لي شفتاه تعادل راتبي عندما كنت ممرضة لمدة خمس مئة سنة .
بعد أن فرغ أعاد كل تلك الحزم إلى العلب وأتربها .. أبي هذا اللغز الغامض ، لو عرفت لمرة واحدة أي شيء يريد ليضحك ، ليبتسم ، ليهدأ .
لا أستطيع أن أعرف ولا يدع لي سبيلا لأي شكل من المعرفة .. وحقا بثُ أشك بأني لست ابنته ، بل ربيبته الآن أكثر من أي وقت مضى .
عندما أكون في الفرشة ، يركل الباب بقدمه ، ويمد رأسه التي تشبه الطلقة ويهبط قلبي ، ترتعد أوصالي .
ينظر إلي ، فأخفي وجهي رعبا .. ذاك الوجه المملوء بالشر والطغيان والقسوة .
إنه مستنفر طوال الأوقات ، كمن فقد شيئا وأقسم ألا يستقر قبل العثور عليه .
لقد زرع الرعب في دمي مذ كنت طفلة . أذكر كان فجأة يصرخ هكذا من تلقاء نفسه وعندما أجفل يكف عن الصراخ ويقول بعد صمت \ بعت \ فأجفل مرة أخرى .. تلك الحركات التي لن أنساها ما زالت مبعث رعب من هذا الرجل .. ومرة لن أنساها ما حييت عندما ذبح قطة على دكة البيت ، ذبحها كمن يذبح خروفا رضيعا وقذفها مقطوعة الرأس وسط الحوش وقال :
سأجعل كل من يخالفني كمثلها .

وعندما نكون على مائدة الطعام يلسعني بنظراته الأفعوانية وأرفع رأسي يبعد نظره ..
أنظر أمامي يعاود النظر في .
وكلما نظرت إليه أدار وجهه وكلما أدرت وجهي تهافتت نظراته علي فأحس بوجهه يقطر دما محتقنا وبعينيه تقذفان نحوي النيران وتغرزان في كبدي مدية سامة .
بودي أن أشرح لك أن أفين مثلا معرضة للضياع الأخلاقي ، لأنها لم تجد من يزرع في حرثها الأخلاق .. لم تجد من تكون مخلصة من أجله .. لا توجد علاقة مقدسة في حياتها .. لا توجد قضية نزيهة تحافظ على نزاهتها .. وعند ذاك ستتساءل بصوت مرتفع أمامي : ولأجل من سأخلص ..
إنها فقدت المقدس .. ولا تثق بالرجل الذي يقاسمها حياتها .. ولكن أي نمط من الحياة .. وفي أي سن ستشفى من كل تلك العقد المتراكمة في دمها وعظامها .. هذه صورة أبي الذي يفتقد المقدس الذي يمنعه من الاحتيال .. وصورة أمي .. وصورة أخي .. وصورة ابن خالي .. وصورتي عندما أفتقدك .. وصورتك عندما تفتقدني .. هل هربت حتى لا تفتقدني .

الصفعة الثامنة عشرة

الليل يعني أن الحي يغدو مقبرة هائلة لأجساد ركضت طوال ساعات النهار ، وحياة جديدة لأخرى .
الليل يعني ثمة حياة تموت
وأخرى تولد ..
تولد .. من موت الأولى .
عندما يأتي الموت تكون ثمة حياة قد انتظرته طويلا كي تولد ..
الحياة تعني الحركة ، والموت يعني الجمود .
أنا حية ، إذن لا بد من حركة تثبت حقيقة وجودي وحياتي ، لا بد من انتفاضة ليس لإثبات وجودي فحسب ، بل لتطبعه على ذاكرة الأجيال التي ستولد من موتي ، الأجيال التي تترقب موتي بنفاذ صبر كي تنفخ فيها حياة .
مضت أعوام وأعوام ..
لا أنا حية ..
ولا ميتة ..
لا حية .. لأنني لا أتحرك
ولا ميتة .. لأنني أفكر .
أشعر باغتراب عن بنية من حولي ..
أشعر باغتراب وأنا أحدثني ..
أشعر باغتراب عن عقلي وجسدي وتنفسي وصوتي .
الآن أبي راقد وأمي راقدة وأنا يقظة وما دمت يقظة فحية ، أستطيع القيام بمهمة ما دمت راغبة لمجرد نهوضي من الفرشة .
بمقدور أوهن مخلوق القيام بمهمة ما دام قلبه ينبض ..

وما دام يملك رغبة وشجاعة حتى لو كانت هذه المهمة فوق طاقته . أتفرس غرفة أبي ..تتحول إلى خاتم صغير ..
تبتلعه عيناي ..
تحركه أناملي في الاتجاه الذي تريد .
أدفع الباب ..
أخطو إلى الداخل ..
ضوء نواصة برتقالي يفترش الغرفة وجثة أبي تلتحف لحافا أخضر اللون أتخيله كنفا ..
رأسه المكللة بشعر أبيض خشن تستلقي كحجرة مفلطحة على مخدة زرقاء فاقعة .
شفتاه منسدلتان يابستان تبرزان عن أسنان كبيرة تميل إلى صفرة قاتمة حتى وهونائم يكون ثغره مفتوحا ، تلك الشفة السفلى كم من المرات استعانت بالرتل الأعلى لتلك الأسنان ووجهت لوجهي البصاق : تف .. تفو ..
وكم أحدثت الاضطرابات لقلبي ودمي وأعصابي ومعدتي ، من ظلمه حتى معدتي تؤلمني ..
بيتنا .. يا بيتنا يا منشأ الأمراض النفسية والعصبية تشنجات القلب يا بيتنا .. توترات الدماغ يا مأوانا وأمي .. أمي .. تلك المنسية إلى جواره أي شيء تحب في هذا الرجل .. في هذه الجثة الغضة .. كم عانيت بسبب حساسيتي المفرطة .. حتى يدها التي تمتد إلى الطعام لتضع قطعة لحم لذيذة أمامه .. تحسسني وتوخزني .. تلك تفاحة طازجة تخبئها له وهويأكل ويأكل .. ويأكل .. آه يا أبي كم تأكل ؟ كم أكره تناول الطعام معه لكني مرغمة على ذلك .. إنه قذر ونتن ولا يستحم في السنة مرة واحدة .. أما تردده المتواصل إلى الحمام فلا يكون إلا لرفع الجنابة .. أنا توقفت عن الصلاة والصيام فقط لأن أمثال هذا السفاح يصلون ويصومون ويرفعون عن أجسادهم الجنابة.. لن

أحتمل هذا المخلوق حتى لو أصبحنا في الجنة معا .. سيكون الابتعاد عنه نعمة .. وعنددلك سأفضل الهرب منها إلى آخر ركن من الجحيم .
مرة قلت له : إذا كانت الماء ترفع الجنابة عن الجسد ، فهل بمقدورها أن ترفع الجنابة عن الروح أيضا ؟
ولم يرد .
قال لأمي : على من طلعت هذه الشقية ، لماذا لاتفكر مثلنا .
وقالت أمي : متى نخلص منها ، كان الله في عون من يتزوجها ، ونحن نعوضه بمبلغ كبير ، صحيح بروين ابنتي ، لكن اتمنى من كل قلبي أيها الرب الطيب أن تقتلها في أقرب وقت .
قال أبي : غنها تحاسبني حتى على نظراتي ، وطريقتي في الطعام .
قالت أمي : كنت أخفي لك بعض اللحم ، لكنها تشتم رائحته مثل قطة مزعجة ، وتخرجه : لمن هذا ؟
أقول : لأبيك .
وتقول : يأكل معنا ، وأيضا خلفنا ، لا .
وترميه للقطط ، أو تقذفه إلى حيث نقوى يدها .
قال أبي لولا الحبس لقتلتها وأرحت رأسي إلى الأبد ، هل انجبتها لتزعجني في حياتي ، لو كانت شابا لطردته ، المصيبة إنها بنت .

لكم أنا حزينة لأنني كل هذه الكراهية لأبي ، وكان من المفترض أن أكن له الحب ، بيد أنه لايدعني ، ولايترك فرصة واحدة لحبه .
وأمي ، بأي قلب تحبه ، هذا الرجل الجائع على الدوام لكل شيء ، للمال .. للجنس .. للطعام .. للضرب .. للشتائم .
ولولا العملية القيصرية التي أجريت لأمي عندما حبلت بي وبتوأمتي لأنجبت بعدنا عشرين بطنا . لقد ورث الشبق عن أبيه ، لأن جدي - كما تقول أمي -

تزوج أربع نساء وكلهن كن على قيد الحياة ، وكن يتهربن من غريزته العدوانية اليومية .
وقبل أن يسلم الروح للحظات قال : أتمنى أن أتزوج خامسة في هذه اللحظات واسلم الروح في ليلة الدخل ..
أنظر إليه .. إلى أمي .. إلى أخي .. يستقر نظري على علبتي الدخان والكبريت بجانب وسادة أبي .. أجفل .. أتذكر : البيك آب بجانب الباب .
أسحب علبة الكبريت وأخرج بسرعة .. أفتح باب الحوش أرمق خزان البيك آب ، أدير الغطاء وينفتح الخزان .. تصدر منه رائحة نتنة .. أحس بخيبة أمل مفاجئة .. أعود أبحث عن خرطوم لأسحب به البنزين .. لن أنام .. لا بد من فعل شيء وخاصة الفكرة التي خطرت لي .. وليحدث ما يحدث ..
سأشعر بفخر واعتزاز لأنني سأكون قد أنجزت عملا .. لأنني سأكون قد وضعت بداية .. أسير خلفا .. أدخل المطبخ تقع كفي على جرة الغاز .. تدير الأنبوب . ألمح قنينة غاز أخرى .. أفتحها يتسرب بخار نتن أشعل ثقب كبريت وينطفئ .. أشعل آخر ، أضعه على البخار فينطفئ .
لست بحاجة ، هي أيضا ستنفجر في وقت غير مناسب من تلقاء نفسها .
الوقت يمضي وموعد نهوض الموتى يدنو ..
أقف في المطبخ وتفوح رائحة كريهة مني ، أتأمل الظلام ، ويستلقي في الحوش تفوح منه رائحة جنازة النهار .
أشعل ثقبا ، يتراقص الظلام ويرتجف .. ينطفئ الثقاب ويعود الظلام .
أشعل آخر .. ويهرول بتكاسل ، أطارده إلى الزوايا .. إذا كانت النار تطردك يا ظلام ، فما الذي يطردك يا شر ..
يناديني خرطوم معلق في السقف تحت التوتياء ، أحمله ، أتجه إلى البيك آب .. أملأ السطل وأعود إلى غرفة أبي .. أيها الأب النائم كم منك فيك ؟

أسكب البنزين على فرشته وفرشة أمي وأخي ،، أضبط قنينتي الغاز في الغرفة ، تموء قطة البيت المسكينة .. أمد يدي على رأسها وأخرجها من الغرفة .. أغطي وجوه النائمين وأشعل ثقبا .. تمتلئ الغرفة بالنيران في لحظة وأهرع .. ترتفع النار ويدوي انفجار هائل يهد الغرفة والنيران تنسحب إلى الحي .. تلاحقني وأركض .. تلاحقني وأركض .. التفت خلفي وأنفجر بضحك هستيري يشبه عواء كلب .